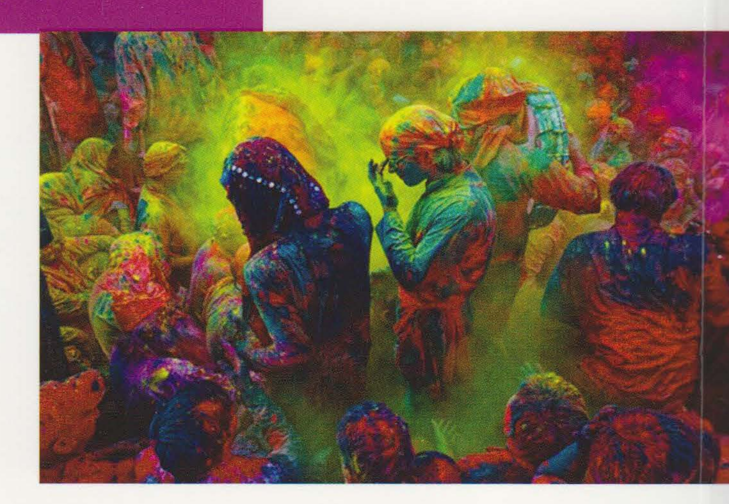
سلسلة سوسيولوجيا

# أصنام المجتمع

## بحث في التحيز والتعصب والنفاق الاجتماعي

الدكتور عبد الجليل الطاهر







المركز الأكاديمي للأبحاث



**الدكتور عبد الجليل الطاهر**

1971-1917

- من رواد علم الاجتماع في العراق.
- من مواليد العراق القرنة / البصرة.
- أكمل الماجستير والدكتوراه من جامعة شيكاغو في الولايات المتحدة 1949م.
- أسهم في تدريس علم الاجتماع في جامعة بغداد والرياض وطرابلس.

من مؤلفاته:

- المشكلات الاجتماعية في حضارة متبدلة عام 1953م.
- التفسير الاجتماعي للجريمة عام 1954م.
- البدو والعشائر في البلاد العربية 1955.
- العشائر والسياسية (ترجمة) 1958م.
- أصول فلسفة الطبقة الوسطى 1960م.
- مسيرة المجتمع 1966م.

# أصنام المجتمع: بحثٌ في التحيّز والتعصب والنفاق الاجتماعي

المركز الاكاديمي للابحاث

# أصنام المجتمع

## بحثٌ في التّحيّز والتّعصّب والنّفاق الاجتماعيّ

بقلم الدكتور

عبد الجليل الطاهر

# أصنام المجتمع : بحثٌ في التَّحيّز والتَّعصّب والنِّفاق الاجتماعيّ

## Idols community




بقلم : الدكتور عبد الجليل الطاهر Abdul Jalil al-Tahir

تصميم الكتاب وغلافه :المركز الأكاديمي للأبحاث ـ التقويم اللغوي : محمد وليد فليون

الناشر :المركز الأكاديمي للأبحاث/ العراق ـ تورنتو ـ كندا

**The Academic Center for Research**

**TORONTO -CANADA**

**Library and Archives Canada/**موثق بدار الكتب والوثائق الكندية

**ISBN 978-1-927946-37-4**

**Email: info@acadcr.com** **website\\http://www.acadcr.com**

**nasseralkab@gmail.com**

بيروت ـ الطبعة الأولى 2016

توزيع : شركة المطبوعات للتوزيع والنشر : بيروت ـ لبنان 7611-2047

الجناح ـ شارع زاهية سلمان ـ مبنى مجموعة تحسين الخياط

**Tel:+961-1-830608 — Fax: +961-1-830609**

**Website:www.all-prints.com** **Email:tradebooks@all-prints.com**

# مقدّمة

يرجع الفضل في اختيار عنوان هذا الكتاب إلى الفيلسوف الإنكليزيّ "فرنسيس بيكون ١٥٦١-١٦٢٦" الذي حذّر النّاس من وجود نوعٍ من الآلهة الكاذبة، تتمتّع بشيءٍ من الإكراه والزّجر على ضمائر النّاس، وتفرض عليهم أنماطاً معيّنةً من التّفكير وأساليب العمل، فَتَحُول بذلك دون حصول النّاس على معرفةٍ حقيقيّةٍ وواقعيّةٍ بالموضوعات الطّبيعيّة والاجتماعيّة، ونعني بالآلهة الكاذبة الأصنامَ التي ترتكز حولها الفِكَرُ المغلوطة، والمشوّهة، والمحرّفة التي يعتنقها الفرد بوعيٍ أو من دون وعيٍ للواقع الاجتماعيّ.

ويجدر بي كذلك أن أسجّل أثرَ (اجتماعيّة المعرفة) في توجيه هذا الكتاب، وفي الإفادة من الإضافات العقليّة التي حقّقها في الكشف عن الصّلة الوثيقة بين فِكَرِ الإنسان، وأوهامه، وخرافاته، وأساطيره، وسلوكه الحزبائيّ، وبين المحيط المادّيّ الاجتماعيّ في معرفة الدّوافع التي تحثّ الإنسان على الدّفاع عن بعضٍ من الفِكَرِ والأوهام.

تَظهرُ في ظروفٍ مادّيّةٍ اجتماعيّةٍ معيّنةٍ أصنامٌ تقف حجر عثرةٍ في طريق المعرفة الموضوعيّة، وتمارس سيطرةً ونفوذاً على تفكير الإنسان وطريقة معالجته للموضوعات؛ وحين تنشر الفئة الاجتماعيّة خرافةً، أو وهماً، أو فكرةً، فإنّها تربطها بمفهوماتها العامّة عن الحياة التي انبثقت من الحالة الاجتماعيّة، والتي تتميّز بوجود الأصنام، فتتعصّب لها، وتتّهم كلّ فكرةٍ معارِضةٍ لا تتّفق وتلكَ المفهومات بالمروق، والانحراف، والهدم، والشّذوذ، حتّى تظهر تلك

المفهومات، فتصبحَ أوهاماً تمنع الفئة الاجتماعيّة المذكورة من استحسان ما لدى الآخرين من آراءٍ وقيمٍ، فينشأ حالٌ من القلق والارتباك، والشّكّ، والتّهاتر، والرّياء، والنّفاق، وتضيع المقاييس الخُلُقيّة.

سأحاول بقدر الإمكان أن أعرض كيف انتشرت اليوم عبادة الأصنام؟ وما هي الأسباب الدّاعية؟ وكيف أنّ سَدَنَة تلك الأصنام لها من القدرة والقابليّة على نشر الإشاعات والأراجيف التي تعظّم أصنامها، وتزيد في قدسيّتها، وكيف تساهم السّدنة في حرق البُخُور، وتقديمِ القرابين والأضاحي، وصنعِ الأوهام والأساطير لنيل الحظوة والجاه والشّهرة، والدّفاع عن المصالح.

والخطر كلّ الخطر، أن تتغلغل قدسيّة الأصنام في ضمائر النّاس وعقولهم، وأن تدور حولها الأساطير والخرافات، حتّى تغدوَ بنظر المنافقين والسّذّج من النّاس أنّها جزءٌ لا يتجزّأ من تكوين المجتمع، وأنّ وجودها شرطٌ أساسيٌّ لإحلال التّضامن بين أفراد المجتمع، وإحكام التّوازن بين الفئات الاجتماعيّة المتعارضة.

إنّ البحث في أثر الأصنام في المعرفة من أقدس واجبات المتعلّم، حيث يجب عليه أن يتعقّب أصول المزالق، والهاوِيات التي قد يقع في حضيضها، ليجتثّ جذور الأوهام حتّى تَسْلَم المعرفة من الشّوائب والنّقائص، ويتخلّص

الإنسان من كلّ أنواع التّحيّز والتّعصّب، والأنانيّة، فيرى الحقيقة الواقعيّة ناصعةً منعزلةً عن كلّ ما يُلصَق بها من أحكامٍ ذاتيّةٍ.

**ويجب ألّا يغيب عن ذهن القارئ أنّ البحث في الأصنام صعبٌ إذا كانت الأصنام لا تزال تتمتّع بالقدسيّة والسّلطة، إذ لم يستطع المؤرّخون المسلمون أن يبحثوا في الأصنام في صدر الإسلام بسبب استمرار القبائل العربيّة على الاعتزاز بأصنامها، وتقديسها على الرّغم من انتشار الإسلام، ولكن عندما زال نفوذ تلك الأصنام، وتلاشت سيطرتها، جمع المؤرّخون المعلومات عنها؛ ولا يختلف حال المؤرّخين المسلمين عن حال الكتّاب الذين يعيشون في بيئةٍ اجتماعيّةٍ تتّصف بتعدّد الأصنام واختلاف الطّقوس، وشيوعِ الأوهام والأباطيل.**

يقتصر هذا الكتاب على الأصنام الاجتماعيّة، وعلى الدّور الذي تقوم به في تجميد الفكر، وإشاعة الباطل، والحيلولة بين النّاس وبين الحقيقة، لتحافظ على امتيازاتها، وعلى الحالة التي تسندها. **ويبحث الكتاب في طبيعة السّلوك الحربائيّ والنّفاق الاجتماعيّ، وما هي الأسس الأولى التي كانت سبباً في انتشارهما، وعدّهما وسائل فعّالةً في النّضال من أجل البقاء**، لأنّ الإنسان لا يُولد منافقاً أو مراوغاً أو شرّيراً، وإنّما يتعلم ذلك كلّه من خلال عيشه مع الجماعة.

راجعتُ لإعداد هذا البحث مصادر كثيرةً إنكليزيّةً وفرنسيّةً، وآثرت أن أضع قائمة المصادر في نهاية الكتاب لأتيح للقارئ الكريم الفرصة لمراجعتها.

وإنّي واثقٌ بأنّ البحث موجزٌ يحتاج إلى عرضٍ مسهبٍ وأمثلةٍ كثيرةٍ، ولكنّه مع ذلك، يضع بين أيدي القرّاء الكرام محاولةً متواضعةً لبيان أثر طبيعة الإنسان، والنّظام الاجتماعيّ في تكوين الأصنام، والأوهام، والتّحيّز، والنّفاق... لعلّها تكون فاتحةً لدراساتٍ مفصّلةٍ.

**الطّاهر**

# الفصل الأول

# الوضعيّة الصّنميّة

ليس من الضّروريّ أن تكون الأصنام مصنوعةً من الخشب أو الذّهب أو الفضّة على صورة الإنسان، فالأمر المهمّ أنّها ترمز إلى بعضٍ من القيم الاجتماعيّة والقوى الرّوحيّة، التي تتّصف بالقدسيّة، وتمتاز بالسّلطة، يهابها النّاس ويخشونها، تحاول أن تربط سير المجتمع وتكوينه الثّقافيّ بإطارٍ من الأوهام والأباطيل، وتعمل على طمس شخصيّة الفرد، وتمنع نموّها وازدهارها، ولا تسمح لها بأن تشغل المكانة الاجتماعيّة اللّائقة بها.

نقصد بالأصنام إذاً شيوع بعضٍ من الأوهام، والأساطير، والفِكَر المغلوطة التي لا تخضع للبحث العلميّ والمنطق، يتعصّب لها الإنسان ويتحيّز، فتؤثّر في كلّ وجوه حياته الفكريّة، فتقيّد عقله وتحدّده، وتقرّر علائقه وصِلاتِه مع النّاس الآخرين كمّاً وكيفاً، وتعمل على تقويتها واستمرارها حيناً، وعلى تقليصها.. وقطعها.. وبترها.. ورتقها.. حيناً آخراً! وبهذا نتجاوز التّعريف المألوف الذي يشير إليه ابن الكلبيّ في **"كتاب الأصنام"**.

أصبحت عبادة الأصنام، والرّكض وراء الأوهام، والتّسليم بالخرافات والأساطير، والتّعصّب لفكرةٍ معيّنةٍ، والتّحيّز غير المنطقيّ إلى فِكَرٍ مغلوطةٍ... شروطاً أساسيّةً لضمان الكفاح من أجل البقاء. من أجل القوت. من جانب

الضّعفاء في مجتمعٍ لم يَقُم على أسس احترام الفرد، وحرّيّة التّفكير والتّعبير عن الضّمير.

**ومفهوم الضّعف واسعٌ وشاملٌ، ولا يقتصر على ضعف التّكوين العقليّ أو الفسيولوجيّ للفرد أو للفئات، وإنّما يتحدّد في الحقيقة والواقع بحدودٍ أخرى، كاللّغة، والدّين، والعنصر، والطّائفة، والقبيلة، والإقليم، والطّبقة، والعائلة، والثّروة؛** وكلّها أمورٌ ينالها ويكتسبها الفرد من عيشه مع الآخرين. فمهما كانت درجة الفرد العلميّةُ، وتحصيلُه الثّقافيّ، وتتبّعه العلميّ، وسموُّ أخلاقه وتقواه...إلّا أنّها أمورٌ ثانويّةٌ وفرعيّةٌ لا أهمّيّة لها بالنّسبة إلى تلك الحدود والموانع والحواجز التي تعمل الأصنام على تشجيعها وبعثِها وتأسيسِها لتقسّم المجتمع إلى أجزاءٍ متباغضةٍ متنافرةٍ ومتباعدةٍ، لتستفيد من هذا الانقسام، فتخلقَ شعوراً بالغَبن والحَيْف، لأنّها تقيس نجاح الفرد وفشلَه بقَدْر ولائه وإخلاصه لها، وبمقدار ما يتّصف به من مقدِرَةٍ على المراوغة والخديعة، واللّعب على الذّقون بمختلف الطّرائق المشروعةِ وغير المشروعةِ. فكان وجودها سبباً في خلق القلق والارتباك.

**وَجَدَ بعضٌ من الأفراد في التّحيّز لصنمٍ اجتماعيٍّ سبباً يضمن وصولهم إلى المراكز التي يتمنّون الوصول إليها، ويسهّل لهم الظّروف المادّيّة، فجعلوا من الصّنم رمزاً لحياتهم ودَعَوا للزّيادة من سلطته وقدسيّته.**

وينشط ظهور الأصنام في نوعين من المجتمعات:

١- المجتمع البدائيّ سهل التّركيب، حيث يسود بين الأفراد شعورٌ بالتّجانس والتّضامن، وتكون الرّوابط الدّمويّة هي أساس كلّ التّقسيم الاجتماعيّ، ويوجد فيه قليلٌ من تقسيم العمل، وحيث تكون أنماط الحياة رتيبةً، تستمّد نظامها من قوى ما وراء الطّبيعة، وتسود فيه نزعةٌ مثاليّةٌ روحيّةٌ تتوجّه في تفسير المعضلات إلى عالم الغيب لاستلهام أسرار الحياة بالإمعان في الفضاء المجهول، حيث تكون الخرافات والأوهام المرجع الوحيد للإنتاج الفكريّ، كما تكون الرّوح أصل الحياة، و يقوم هذا النّوع من المجتمع على نظامٍ لا يقبل التّبديل، لأنّه منزّلٌ من السّماء، يَعُدُّ الفردُ موطنَ الشّياطين والشّرور، فإن شطّ عن القواعد الاجتماعيّة فمصيره البترُ والقطع.

٢- المجتمع الدكتاتوريّ الارستقراطيّ. الإقطاعيّ عندما لا يكون للفرد شأنٌ يُذكر، و قد ابتلعته السّلطة، فاضطرّ إلى عبادة وتقديس أنواعٍ معيّنةٍ من الأصنام من دون مناقشةٍ أو جدالٍ.

تُشاد الأصنام في المجتمع لأسبابٍ تقتضيها الحالة الاجتماعيّة، والسّياسيّة، والاقتصاديّة على قواعدَ وركائزَ تدعمها قوىً ماديّةٌ ومعنويّةٌ، تهدّد النّاس في قوتهم، ورزقِهم، وأطفالهم، وحرّيّتهم، وطموحهم، حتّى يدبّ اليأس إلى قلوبهم، ويستسلموا للأمر الواقع، فيُبتلون بالخداع، والنّفاق، والتّلوّن، والسّلوك الحَربائيّ. ولا يقدر الصّنم أن يبسط نفوذه، وأن يحافظ على

كيانه وبقائه إلّا بوجود شبكةٍ واسعةٍ، ومنظّمةٍ من العيون، تسهر على رعاية مصالحه، وحماية أتباعه، **ومن الضّروريّ أن تكون القاعدة التي يستند إليها الصّنم قويّةً تقاوم العواملَ المناخيّة التي يتمخّض عنها الجوّ الفكريّ، بما يشبه الزّوابع، والزّلازل، والبراكين، ودرجات الغليان.**

تتضامن الأصنام، وتتكاثف فيما بينها للسّير بالمجتمع إلى الوراء في سبيل استمرار مصالحها، وإنزال الضّربات القاصمة بأولئك الذين تسوّل لهم أنفسهم إلقاء الحصى والحجارة عليها، فلا يسجدون لها، ولا يتمرّغون على أعتابها؛ فمهما اختلفت الأصنام في الظّاهر فإنّها ملّةٌ واحدةٌ، فالصّنم من أيّة فئةٍ اجتماعيّةٍ كانت، أو طبقةٍ، أو طائفةٍ، أو إقليمٍ، أو عنصرٍ قريبٍ ونسيبٍ للأصنام الأخرى...فإنّما تجمعها المصلحة المشتركة، وتوحّدها غايةٌ واحدةٌ ألا وهي. إبقاء الجماهير عمياءَ ساذَجَةً تدين لها بالولاء والطّاعة.

**اختصّ كلّ صنمٍ من الأصنام بفئاتٍ يتهادن أعضاؤها بصورةٍ مؤقّتةٍ، جاؤوا يوقدون البُخُور، ويقرؤون التّعويذات، ويقدّمون الأضحيات والقرابين، ويصطادون في المياه العكرة، يتشدّقون بالأوهام الفارغة الجوفاء، ويتندّرون بالمكارم والفضائل، فمنهم من لم يستطع أن يشقّ طريق حياته في حقل اختصاصه، وأن يصبر ويثابر ليبني مجده بيده، فرأى طريقاً قصيراً ممهّداً لا يخسر فيه شيئاً. ما عدا الكرامة، وشرف الضّمير، وبعضٍ من القيم المعنويّة. وهي أمورٌ سهلةٌ وهيّنةٌ يساوم عليها لنيل الجاه والمركز، ويثمّن كرامته بالرّبح المادّيّ، وبالحظوة والشّهرة الفارغة الكاذبة، وفيهم المتعلّم الذي نشأ نشأةً عصاميّةً، في**

بيئةٍ فقيرةٍ، واستطاع أن يقتبس بعضاً من المعرفة والمهارات في معاهد العلم في الوطن أو خارجه، ورأى من لا يدانيه في الدّرجة العلميّة والثّقافة... يشغل مرتبةً رفيعةً، ويتمتّع بمكانٍ مرموقٍ، فكرّس جهوده ومعرفته لدراسة هذه الظّاهرة الغريبة، فتأكّد أنّ طريق الشّهرة والسّمعة واحدٌ لا غير في مجتمعٍ قائمٍ على الأوهام والأباطيل والأساطير والخرافات، فعليه أن يربط مصيره بتقديس أحد الأصنام وعبادته، فمن شروط البقاء في الحياة والتّسلق في السّلم أن يحضر المجالس الطّقوسيّة، وأن يُشعل الشّموع، وينفخ في البوق، ويصفّق مع المصفّقين! وإذا قَدِرَ الصّنم على إهاجة شعور البسطاء السّذّج وإثارة عواطفهم بما يستخدمه من أساطير وأوهام، وبما يقوم به من أعمالٍ بهلوانيّةٍ... فإنّه يستميل أعداداً كبيرةً منهم، وبخاصّةٍ إذا جاء بالمعجزات والخوارق، فلا يتّبع القوانين والأنظمة، ولا يقيم وزناً للقيم الخُلُقيّة، حين يغدق الألقاب والمِنَح والحُظوات على المقرّبين والمُوَالين.

يلجأ النّاس إلى عبادة الأصنام حين يكون واقعهم مريراً وبغيضاً، يضطرّون تحت ضغط بؤس الواقع ليضحّوا بكلّ قيمةٍ تجعل من الحيوان إنساناً في سبيل البقاء. أي إنّهم يرون في عبادة الأصنام وسيلةً ناجحةً لتحقيق التّوازن بين رغائبهم وآمالهم وبين الحالة الاجتماعيّة.

وكما أنّ الأفراد يصنّفون أنفسهم وَفق نظامٍ متدّرجٍ من الرّتب الاجتماعيّة، ومن المسؤوليّات، والامتيازات، فإنّ الأصنام يستجيب بعضها لبعضٍ في عمليّاتٍ قسريّةٍ من التّنافس، والتّنازع، والتّوافق، فيخضع بعضها

لبعضٍ حتّى يتغلّب أكثرُها قوّةً ونفوذاً، فتسود مدّةٌ من التّهادن والتّوافق المؤقّت الطارئ، الذي لا يلبث أن يزول حتّى يظهر النّزاع ثانيةً؛ فإن كانت الظّروف مؤاتيةً من حيث الزّمانُ والمكانُ لأحد الأصنام أن يتولّى منصباً ذا سلطةٍ... فإنّ من النّادر أن يعرّض مصالح الأصنام الباقية للخطر، لأنّه يخشى أن تتغيّر الظّروف (الزّمانيّة ـ المكانيّة) فتتّحِد الأصنام الباقية، وتأتلف للانتقام منه! ونعني بالظّروف المؤاتية استعمالَ القوّة، والتّهديد، والوعيد بهدف الإرهاب، وكسر المعارضين الذين قد يفسدون النّاسَ عليهم بأساليب شتّى لسلب قوّتهم وتنغيص عيشهم.

**يوجد لكلّ حقبةٌ تاريخيّةٌ، ولكلّ حالةٍ اجتماعيّةٍ صنمٌ أو مجموعةٌ من الأصنام، تمارس أنواع السّيطرة الاجتماعيّة التي تؤثّر في توجيه الأوهام والفِكَر وتهييجها، وتجريد بعضٍ من المفهومات من معانيها الحقيقيّة، وصبُّ معانيَ جديدةً لا تمتّ لها بصِلَةٍ، كالدّعاية، والصّحافة، والأحزاب، والمؤسّسات الثّقافيّة الأخرى، لتوجّه النّاس إلى قبلةٍ ترضاها، ثمّ تختفي لتحلّ محلّها مجموعةٌ صنميّةٌ أخرى كمجيء (هتلر) و(موسوليني) إلى الحكم، وزوالهما بزوال الحالة الاجتماعيّة.**

كان (هتلر) بالنّسبة لأكثريّة الشّعب الألمانيّ زعيماً شعبيّاً تقمّص العقليّة الألمانيّة، وتبنّى مطامح شعبه، حتّى غدا نِصْفَ إلهٍ، لأنّه العبقريُّ الوحيدُ الذي يستطيع أن يكشف عن سير التّاريخ، وأن يقود الشّعب الألمانيّ نحو العزّة والكرامة، وتدور حول حياته الأوهام والأساطير! وربّما يعتقد الشّيوخ

والعجائز الألمانُ بأنّه لم يَمُتْ! وأنّه سيعود في يومٍ من الأيّام، يملأ الدّنيا عدلاً بعد أن مُلئت جوراً وظلماً، فيوحّد ألمانيا، ويعيدها دولةً عظيمةً يطهّر أرضها من كلّ أجنبيّ.

وكان الدّوتشيّ "موسوليني" في نظر الإيطاليّين المنقذَ الوحيدَ الذي سيعيد بناء صرح الإمبراطوريّة الرّومانيّة القديمة، وسيجعل البحرَ المتوسّط بحيرةً إيطاليّةً، وسيضمّ أقطاراً واسعةً، **وكان النّاس في إيطاليا يقرؤون التّحيّة لموسوليني قبل أن يمدّوا أيديَهم إلى الزّاد!.**

لا يمكن أن يتكوّن صنمٌ اجتماعيٌّ عن طريق حرّية الرّأي، والتّعبير، والمناقشة، والجدل، والإقناع، والاعتقاد- وإنّما باستعمال القوّة، والزّجر، والدّعاية، والتّزكية، والسّلوك الرّعاعيّ، فحين تستجيب الجماهير للصّنم فإنّها تنقاد باللّاشعور، كما لو كانت منوّمةً تنويماً مغناطيسيّاً.

**تُوضع للصّنم في العادة أسماءٌ ولو من دون مسمّيات، لتلفت انتباه النّاس، وهي أسماءٌ اخترعها ونحتها أفرادٌ من الزّمرة الماهرة في الخداع والتّحايل على الألفاظ والمعاني، ويكونون من الذين لا يعتنقون عقيدةَ من أراد نحتَ الصّنم ونَصْبَه على قواعده وركائزه، ومن الذين لا يشاركون في الوقت ذاته الأتباع في تقديسهم واحترامهم كالزّعيم، والمنقذ، والبطل، وابن الشّعب البارّ...**

وعندما يظهر للوجود صنمٌ جديدٌ، يستجيب لرغبات النّاس وحاجاتهم، لكونه استطاع أن يتلمّس مشاعرهم وأحاسيسهم، وأن يضع خطّةً لتحقيق طموحهم...فكثيراً ما يفقد النّاس الثّقة بالصّنم القديم، ويضعف إيمانهم به، وتقديسهم له، على الرّغم من ضخامة قاعدته، وقوّة ركيزته؛ وتنشأ نتيجةً لذلك (جدليّةٌ) تدعو إلى التّناقض بين الأصنام نسمّيها (الجدليّة الصّنميّة) فينهار نفوذ أحد الأصنام وتزول سلطته، وتسوء سمعته، وتتطلّع الجماهير إلى ظهور شخصٍ آخرّ توليه أمرها، وتقدّسه وتحترمه، وبمعنىً آخرَ يوجد في كلّ حالةٍ نوعان من الأصنام الاجتماعيّة: أصنامٌ ترسّخت قواعدها، واستقرّت ركائزها في التّكوين الاجتماعيّ والسّياسيّ، ولكنّها فقدت حيويّتها وفعاليتها بمرور الزّمن.

وبسبب تبدّل الحالة الاجتماعيّة، وظهور رغباتٍ جديدةٍ لا يستطيع الإنسان تحقيقها ضمن إطار الأصنام القائمة، فظهرت أصنامٌ جديدةٌ تحاول أن تشقّ طريقها فيبدأ النّاس بتقديرها والاعتراف بها، خاصّةً إذا استطاعت الإتيان بالمعجزات والخوارق.؛ **وتتّصف مدّة تنازع الصّنمين وصراعِهما بالقلق والاضطراب فندعوها (مدّة انتقال) من عبادة صنمٍ كان موضع التّقديس والاحترام، فصار موضع الشّتم والسّخرية والقذارة إلى صنمٍ آخر، يكون ذا سلطةٍ ونفوذٍ وقدسيّةٍ**، وعلى كلّ حالٍ لا يخلو المجتمع التّقليديّ الإقطاعيّ، أو الدّكتاتوريّ من صنمٍ، فلو . خَلَتْ لانقلبت . ولحدثت ثوراتٌ وانقلاباتٌ وأعاصير! ويصاحب تغيير الحالة الاجتماعيّة ضربُ الصّفوةِ المحيطةِ والقائمة

على سدانة الصّنم سياجاً حديدياً حول نفسها، لتمنع الآخرين من طلّاب الجاه والسّمعة الذين على أهبة الاستعداد لبيع الضّمير، وغمض الجفون، وتلويث القلم...من أن ينحازوا إلى صنمٍ آخر، وسواءٌ كان الصّنم ذا سلطةٍ فعليّةٍ أو نفوذٍ منتظَرٍ يعظّمونه ويكبّرونه أملاً في أن يأتي اليوم الموعود حين يمسك بيديه زمام السّلطة فيحقّق أطماعهم الشعبيّة. ولهذا تقتضي مصلحتهم وجوب إشاعة الأخبار، وتلفيقها، ونشرها، لتمهيد السّبيل، وإعداد الأذهان لظهور الصّنم الجديد!.

يتّضح مثل هذا الصّراع في تأريخ كلّ أمّةٍ، ففي الوقت الحاضر تقدّم دول أميركا اللّاتينيّة مثالاً رائعاً، حيث يرتفع في كلّ مناسبةٍ صنمٌ اجتماعيٌّ، تصفّق له الجماهير، وتعقد له أقواس النّصر، وما إن يلبث أيّاماً حتّى تنتهي روايته، فيزول عن المسرح، ليمثّل آخر الدّور من جديدٍ، فتهتف له الجماهير، وتُشاع عنه مختلف القَصص والخرافات. وعلى كلّ حالٍ تصفّق الجماهير في كلّ مرّةٍ للغالب المنتصر، وترفع له الأعلام، وتدقّ الطّبول، وتعزف الموسيقى.

وفي الوقت الذي يحصل فيه المحظوظون على ما يريدون يبدؤون في تضييق الدّائرة التي تحيط بالصّنم، حتّى لا تتوزّع الأسلاب والغنائم والألقاب على عددٍ كبيرٍ من النّاس، فلا تعود التّضحية ذات قيمةٍ؛ وفي كلّ مرّةٍ يجيء فيها الصّنم إلى السّلطة يقضي على معارضيه من أتباع الأصنام الأخرى التي لا تساوم ولا تنافق، فيضطرّهم إلى تبديل الولاء، وتغيير وجهة النّظر بالقوّة والعنف.

تكتسب الأصنام معانيها المقدّسة وتنال سيطرتها في عمليّة تبادل العلاقات الاجتماعيّة، فليست القدسيّة والسّيطرة جزأين جوهريّين من صلب الأصنام ذاتها، وإنّما يضيفها النّاس عليها، فمن المنتظر أن تتعدّد معاني الصّنم الواحد بتعدّد العلائق الاجتماعيّة. فليس من الممكن أن يؤدّي وَهْمٌ واحدٌ معنىً متماثلاً للنّاس كافةً إذا كانت خبراتهم متباينةً وغيرَ متشابهةٍ؛ ويمكن أن نسوق هنا المثل التّالي:

حدثت ذات مرّةٍ مظاهرةٌ، وأخذ المتظاهرون يهتفون باسم (الدّيمقراطيّة) وهي من دون شكٍّ كلمةٌ غريبةٌ ثقيلةٌ على سمع أحد القرويّين، **إلّا أنّ حبّ الاطلاع دفعه للسّؤال من أحد الشّياطين الذي استغلّ سذاجة هذا الرّجل وعفويّته فقال: (الدّيمقراطيّة يا عمّ تعني الطّبيخ الكثير والملابس) فردّ عليه القرويّ: (والله يا عمّ كلّنا تمقرطنا).**

**وهكذا فإنّ وَهْمَ الدّيمقراطيّة يتحدّد بظروف الإنسان وخبرته، فهي تعني في بلدٍ ما المساواة الاقتصاديّة، بينما تعني في بلدٍ آخر المساواة السّياسيّة؛** فالصّنم والوهْم اجتماعيّان في طبيعتيهما، ويشتملان على حالةٍ اجتماعيّةٍ، وهي الشّرط الأوّل لظهورها. لذا فإنّ الأحوال المادّيّة والعلاقات الاجتماعيّة هي أساس الوعي لما يعنيه الصّنم أو الوهْم، وإنّ الصّنم والوهم يكتسبان المعاني من الإضافات التي تلصقها الكائنات البشريّة بهما، وهي في الواقع نتائج لخبرات تلك الكائنات، وللصّور الذّهنيّة التي تحملها عنها.

تختلف الصّورة الذّهنيّة التي يكوّنها كلّ فردٍ عن العالَم الذي يعيش فيه عن أيّ فردٍ آخر، وذلك تَبَعاً للمنزلة الاجتماعيّة التي يشغلها، وللمرحلة التّاريخيّة التي يمرّ بها، وللفئة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها، وللوسائل والإمكانات المادّيّة التي في حوزته! فصورة المحيط المادّيّ لإقطاعيٍّ يملك ألوفاً من الفدادين، هي غير صورة الفلّاح الذي أنهكه التّعب، وأضناه العمل، أو صورة المثقّف المحظوظ الذي تُغدَق عليه أنواع الألقاب، والمنح، والعضويّات المختلفة في اللّجان، وتُنثَر أمامه الزّهورُ والرّياحين .. هي غير صورةِ المثقّف العصاميّ الذي لقي أنواع العذاب، وذاق مرارة الفاقة السّوداء، وبذل الغاليَ والنّفيس في سبيل أن يكوّن نفسه، ليضع مهاراتِه وخبراتِه في خدمة وطنه، فوجد الأبواب مؤصدةً، والوجوهَ كالحةً، وأنصافَ الآدميّين أنصافَ ملائكةٍ، يقرّرون مصيره؛ وصورةُ صاحب السّيّارة الذي يقودها بسرعةٍ، هي غير صورة آخَرَ يمشي على قدميه، فالأوّل يخشى أن يَدهس أحداً، والثّاني يخاف على نفسه من الموت تحت عجلّات السّيّارة؛ وممّا لا شكّ فيه أنّ يحرص كل واحدٍ على أنانيته وأن يتحيّز ضدّ الآخر، وأن يسلّم كلّ واحدٍ بمجموعةٍ من الأوهام والخرافات مقدّماً. ولكنّما تجب الإشارة إليه، هو أنّ المحرومين الذين يشعرون بضغط بعضٍ من الأصنام، أو بكبرياء السّدنة وعجرفتهم، يحاولون أن يتكيّفوا بشتّى الطّرائق الوضعيّة، فقد يكون أحد المحرومين أو المظلومين من اضطهاد الأصنام الاجتماعيّة سلبيّاً عنيفاً، فيتخذ موقفاً عدائيّاً ضدّ الأصنام ومن يحيط بها، فيعارض الأوهام التي تروّجها، وقد يقدّم أوهاماً جديدةً يستلهمها من حالته الخاصّة، فيقارع بها الأوهام السّائدة ذاتَ السّيطرة

**والقدسيّة؛ أو يكون أحدُ المحرومين غيرَ قادر على المقاومة، فيقنع بالأمر الواقع، ويستسلم من دون قيدٍ ولا شرطٍ، فيرى كلَّ شيءٍ من الباطل حسناً، وكلَّ قبيحِ الصّورة جميلاً، وكلَّ بليدٍ عبقرياً لَوْذَعِياً، وكلَّ متلوّنٍ مداهِنٍ صريحاً صادقاً، وكلَّ وضيعٍ منحطٍّ شريفاً نبيلاً. وقد تُوصد الأبوابُ في وجه أحد المحرومين فيرى في المجتمع عذاباً شديداً، ووخزاً في الضّمير، فيفِرَّ منه، ويخرج بطرائقَ مختلفةٍ، كالانكباب على الفنون، أو الهروب إلى صومعةٍ، أو أن يُقدِم على الانتحار.**

تصبح المعرفة المتكوّنة من الصّور الذّهنيّة عن العالم الذي نعيش فيه مجموعةً لأنواعٍ متعدّدةٍ من التّحيّز والتّعصّب والخرافات.

**وتتعاون في تكوين هذه الصّور أنواعٌ متعدّدةٌ من المعرفة هي:**

. **المعرفة الحسّيّة:** وهي التي لا تدرك من الحقيقة الواقعيّة إلّا جزءاً ظاهريّاً، أمّا الأمورُ القِيَمِيَّةُ والرّوحيّة، فإنّها تتطلّب نوعاً آخر من المعرفة تتعدّى حدود المعرفة الحسّيّة، فلو أخذنا مثالاً سهلاً عن سلوك الأصنام الاجتماعيّة، ودرسنا ملامح وجوهها وسيماها، وشاهدنا السّرور والألم، والرّعب والكبرياء، والكراهية والمحبّة... لرأينا أنّها موضوعاتٌ خصبةٌ للبحث والتّأويل من جانب السّدنة التي تحيط بها؛ وقد ينشب خلافٌ بين أفراد السّدنة على تفسير ابتسامات الأصنام! هل هي صفراء تنطوي على الوعيد والحقد الدّفين؟ أم إنّها متفجّرةٌ من القلب، ووجّهت لأحد المحظوظين لتعبّر

له عن إمكانيّة زاخرةٍ بمستقبلٍ زاهرٍ وبمنصب رفيعٍ؟ فتتّخذ السّدنة من الابتسامة أو القُبلة كشّافاً أو معياراً لقياس مشاعر الصّنم وعواطفه التي تمثّل قوّتي الجذب والدّفع نحو الأفراد، وعلى أساسها تصنّف السّدنة النّاس من حيث الأهمّيّةُ والمنصب والمنزلة، ولهذا يكثر التّحاسد والتّباغض على نيل الابتسامات والقُبَل في مناسباتٍ طقوسيّةٍ مختلفةٍ كالأعياد والاحتفالات الصّنميّة؛ والنّتيجة هي أنّنا نحتاج متغلغِلَة تنفذ إلى ما وراء الملامح، لنعرف ما هي الدّوافع والأسباب؟ وكيف نفسّرها؟! ولا يمكن الوصول إلى هذا النّوع من المعرفة إذا لم نشارك الأتباع والسّدنة في تحيّزٍ يشابه تحيّزهم وفي تعصّبٍ يماثل تعصّبهم.

**المعرفة السّياسيّة: أي معرفة التّيّارات المتعارضة، والنّضال السّياسيّ، ثمّ** معرفة القوى الاجتماعيّة التي تعمل على تقديس الأصنام واحترامها بدعوى حاجة المجتمع إلى التّوازن والانسجام. وتكون المعرفة السّياسيّة معرفةً مكافِحَةً ومناضِلَةً ومتحيّزَةً، لأنّها ترفض الاستماع لوجهات النّظر الأخرى، ولا تعترف بآراء المعارض، وتعدّها خيانةً وخروجاً عن المألوف، فتستخدم كلّ ما لديها من قوّةٍ لمطاردتها والقضاء عليها، فلا تلبث أن تنتقل إلى تيّاراتٍ سرّيّةٍ لا يقل خطرها عن كونها علنيّةً، إن لم يزد عليه.

تُؤسَّسُ المعرفة السّياسيّة على الدّعاية والتّهريج، واستغلال الأحزاب والنّوادي، ولو ادّعت أنّ تلك النّوادي ثقافيّةٌ لا تتدخّل في الدّين ولا في السّياسة؛ وتهدف المعرفة السّياسيّة للحصول على السّلطة، وتطمح في خلق

نظامٍ سياسيٍّ جديدٍ. وتصبح المعرفة السّياسيّة خليطاً من الإيمان الأعمى ببعضٍ من القواعد، ومن الواقعيّة والانتهازيّة، والشّكّيّة والمثاليّة والميكافيليّة.

. **المعرفة العلّميّة: وهي التي تؤثّر في خرافاتنا، وأساطيرنا، وأوهامنا، وأصنامنا، وصورنا الذّهنيّة عن العالم الذي نعيش فيه،** فهي معرفةٌ منظّمةٌ، ومجرّدةٌ نسبيّاً من كلّ رأيٍ ذاتيٍّ وخاليةٌ نسبياً من الغموض والإبهام، وهي معرفةٌ مستقلّةٌ، وليست مناضلةً، لأنّها موضوعيّة، ولكن قد يُسخَّر هذا النّوعُ من المعرفة لخدمة الأصنام، وذلك بمحاولة قلب الحقائق، وعرضها بشكلٍ معزَّزٍ بالمصادر المشوَّهة، والنّصوصِ المزيّفة، فيدّعي بعضٌ من السّدنة أنّه قد اتّبع الطّرائق العلميّة الحديثة، فوصل إلى الفكرة القائلة بضرورة وجود الأصنام لحماية العامّة والمحافظة على الاستقرار.

. **المعرفة الفلسفيّة: وهي تساهم مساهمةً فعّالةً في الكشف عن الخلاف والتّناقض الواقع بين المذاهب الفلسفيّة،** وقد تتوصّل إلى القول: إنّ الخلاف ناتجٌ عن اختلاف الحالات الاجتماعيّة، ولهذا تحاول المعرفة الفلسفيّة أن تبرّر أو تثبت بعضاً من الموضوعات، وتنكر وتجحد الموضوعات الأخرى؛ ففي صلب المعرفة الفلسفيّة نوعٌ من المعرفة المناضلة أو المكافحة ـ المتحيّزة ـ المتعصّبة التي تتّخذ موقفاً معيّناً نحو الموضوعات، وبذلك تقترب من المعرفة السّياسيّة- أي إنّها تتضمّن أحكاماً خُلُقيّةً وتحيّزاً وتعصّباً.

**إنّ القسم الأكبر من آدابنا الشّعبيّة، وخرافاتنا، وطقوسنا الاجتماعيّة مؤسّسٌ على مزيجٍ غامضٍ من التّحيّز والتّعصّب، والأوهام والصّور الذّهنيّة المختلفة.**

ولنأخذ مثالاً واضحاً عن المجتمع البدائيّ وسنجد أنّ الفرد قد أضاع شخصيّته، وأذابها في الصّنم الذي يعبده، فاتّحدت شخصيّته بالحيوانات، والأشجار، والصّخور، والغيوم، والآبار التي يعيش معها، وتعبد كلّ قبيلةٍ في المجتمع البدائيّ نوعاً من الأصنام، ولكنّها ليست هيئاتٍ بشريّةً، فهي حيواناتٌ كالتّمساح، والأسد، والضّبُعِ والذّئب وغيرها. ولا شكّ في أنّ أفراد تلك القبائل أكثرُ فهماً وإدراكاً للطّبيعة البشريّة، لأنّهم لم يقدّسوا رمزاً ذا ملامحَ تعبيريّةٍ قابلةٍ للتّفسير والتّأويل، أي إنّ الرّمز المقدّس، لا يحبّ، ولا يكره، ولا يتهادى، ولا يتبختر، ولا يتكبّر! فإذا صادف واتّخذت إحدى القبائل التّمساح صنماً فإنّ أفراد تلك القبيلة يصبحون قساةً جفاةً، وهم دائماً وأبداً على أهبة القتال، وإن اختارت الأخرى الثّعلب، فإنّ أفرادها يتّصفون بالتّلون والخداع والمكر والجبن.

ولا تنحصر حدود هذه الأصنام ضمن نطاقٍ معيّنٍ، وإنّما تشتمل على الحياة والطّبيعة كلّها، بأشجارها، وحيواناتها، وصخورها، وغيومها، ومطرها، وطيورها، فيكون بعضها مقدّساً وحلالاً، وبعضها الآخر محتَقَراً وحراماً. **وهكذا نخلص إلى أنّ الأفراد هم الذين يخلقون أصنامهم، ثمّ يحيطونها بالأساطير والخرافات والأوهام، وهم الذين يضفون عليها معاني القدسيّة**

والسّيطرة، نتيجةً لفعالهم التّعاونيّة الجماعيّة؛ فهناك بعضٌ من الحيوانات المقدّسة التي لا يجوز قتلها، أو التعرّض لها، وهناك أحجارٌ مقدّسةٌ يضعها النّاس في معابدهم، وبيوتهم، ويحملونها في جيوبهم لطرد الشّياطين والأرواح الشّرّيرة! وهناك بعضٌ من الطيور التي تجلب الخير والرّزق والسّعادة، وغيرها من الأوهام التي يبتدعها الإنسان في هذا العالم ليجعل حياته رضيّةً هنيّةً.

ويعني الصّنم الاجتماعيّ اليوم ما كانت تعنيه الأصنام الطّبيعيّة للقبائل البدائيّة، من حيث تصنيفُ النّاس والأشجارِ والحيواناتِ والأحجارِ، فيُلصِق ببعضها القدسيّة والقوّة الإلزاميّة، ويكون عاملاً موحّداً لأفراد الأصنام أو الصّنم الواحد. فلا يجوز التّصادم ولا التّنازع بين الأفراد الذين يحملون ويحترمون الصّنم ذاته، ولا يُقبل أمر التّناقض بين الأصنام. ولقد كان اختلاف أنواع الأصنام سبباً في إثارة التّحزّبات، والتّشيّعات، والتّعصّبات القبليّة بين الأقوام البدائيّة، وكان اختلاف الأصنام السّبب في تمزيق وحدة الصّفوف، وانتشار المحسوبيّات و(الأفضليّة) على أساس الدّين، والعنصر، واللّغة، والإقليم، والطّائفة، والعائلة، والثّروة، وغيرها من العوامل؛ فقد تجعل إحدى القبائل البدائيّة (النّار) رمزاً لها، فتأخذ القبيلة المعارضةُ المناقضةُ لها (الماء) رمزاً لتعبّر عن نِقمتها ورأيها في الحياة، وقد تختار إحدى القبائل الأخرى (اللّيل) شعاراً لنقمتها ورأيها في الحياة، وتختار إحدى القبائل الأخرى المعارضة(النّهار) شعاراً، وقد يدافع أحد الأصنام عن الإقليم الشّماليّ وأهله لأنّه مَهَبُّ الرّياح الباردة التي تقلّل من درجات الحرارة، وتجلب معها المطر،

والبركة، والخير، ويعارض إقليم الجنوب لأنّه مصدر الحرّ والنّار والرّيح العاتية.

**وما دامت الأصنام تؤدّي إلى انقسام المجتمع إلى قبائلَ، وفئاتٍ اجتماعيّةٍ مختلفةٍ، ومتعارضةٍ، ومتناقضةٍ، فإنها ترمز إلى حالاتٍ اجتماعيّةٍ متعارضةٍ ومتناقضةٍ، ولابدّ من أن تجد القبائل والفئات الاجتماعيّة بعضاً من الأوهام، والأساطير، والخرافات التي تفصل بعضها عن بعضٍ، فتغذّي جذوة الفرقةِ والابتعاد، وتلهب نار الحقد والضّغينة! فتصبح تلك الأوهام سبلاً تساعد كلّ فردٍ، وكلّ فئةٍ، وكلّ طائفةٍ في التّكوين الاجتماعيّ...لكي ينال مكانةً خاصّةً. وتكون النّتيجة حالاتٍ قائمةً على أسس التّنازع، والتّنافر، والتّحاسد، والتّباغض.**

وقد تقتضي ظروف الحياة القاسية، والصّنميّة المؤسّسة على النّزاع والمناقَضَة، أن يتهادن أفرادٌ من فئاتٍ مختلفةٍ، فيتحالفوا، ناسين خلافاتهم، بينما يستمرّ العداء، وتسود البغضاء بين الباقين، وتنشب المنازعات؛ ففي حالةٍ كهذه يجب على كلّ فردٍ أن يختار الانضمام إلى إحدى الجبهات المتنازعة، ليحافظ على بقاء حياته. وفي مثل هذه الحالة تسود الفكرة القائلة: إمّا أن يكون الفرد معنا، وإلّا فهو علينا! فلا يمكن أن يحتفظ الفرد باستقلاله وحياده وسط هذا النّزاع المستحكم.

ويجب عليه كذلك أن يوطّن نفسه على إمكان أن تتبدّل الظّروف والأحوال، وتتغيّر سلطة الصّنم الذي يقدّسه، فمن الضّروريّ أن يوطّد عزمه لتغيير طموحه أو صنمه إذا اقتضى الأمر، **أي أن يكون منافقاً ومراوغاً، يغتنم الفرص، ويمشي وراء مصلحته، وقد يعلن الموافقة لأتباع الصّنم الجديد، ولكنّه يضمر لهم الكراهية والبغضاء، أي إنّه يحوّل أحاسيسه وشعوره إلى ما تحت الوعي**، فإذا سنحت الفرصة، وجاء اليوم الموعود لعبادة صنمه الذي نزل من خشبة المسرح، وذهبت قدسيّته وسلطته، حرّر شعوره المكبوت، وأطلق دوافعه من قيودها لتمارس عملها وفعالياتها ثانيةً.

لا يمكن إذاً أن نكتفي بالأخبار التي تُشاع عن تفضيل الصّنم لبعضٍ من الأشخاص على آخرين بدعوى الوحي، والإلهام من القدرة الرّبّانيّة، وليس مجرّد صدفةٍ أن يغدق الألقابَ والمناصبَ، ويمهّد السّبل أمام بعضهم، ويوصد الأبواب . أبواب القوت . أمام الآخرين! فمن المؤكّد أن يتّصل التّفضيل بالمصالح، والعواطف، والدّوافع، والاتّجاهات، والتّيّارات الدّينيّة، والسّياسيّة، والإقليميّة، والطّائفيّة، وغيرها. فالآراء، والفِكَر، والأوهام، عبارةٌ عن أسلحةٍ في الحالة الصّنميّة، تدافع عن مصالح فئةٍ معيّنةٍ لها تأثيرٌ وسلطةٌ في تعيين أساليب العمل والتّفكير.

وإذا لم يتّصل الوهم، أو الرّأي بالواقع، فلا يمكن أن يُقام له وزنٌ في إدراك وفهم الحالة الصّنميّة، فلماذا اختار الصّنم شخصاً ذا لونٍ أسمرَ منتصبَ

القامة أسودَ العينين، يمشي هوناً، ولم يختر زميلٌ له الإمكانات ذاتها وكذا القابليّات؟!.

**لا يمكن أن نطبّق عامل الصّدفة لتحليل عمليّة الاختيار هذه، فمن الضّروريّ أن تكون للصّنم مقاييس معيّنةٌ، تقيس الطّول، والوزن، والتّوجّه، والحركة، والفعالية، والقوّة، وغيرها من المعلومات الضّروريّة للمحافظة على كيانه واستمرار سلطته، ولكنّ اختيار هذا الشّخص، وهو غير كفءٍ للقيام بالمهامّ التي أُنيطت به، يكون سبباً في ململةٍ وقلقٍ الحالة الصّنميّة بأجمعها، وعاملاً في إثارة الكراهية والبغضاء في نفوس الآخرين من عبّاد أصنامٍ أخرى فاشلةٍ أو في طريق التّكوين.**

ومن الجدير بالذّكر، ألّا تكون المقاييس التي تستخدمها الأصنام في تصنيف النّاس والحكم على قابلياتهم من نتاج تفكيرها ومعرفتها، فقد تستوحيها من قوىً علويَّةٍ تنفخ فيها الرّوح وتعطيها السّلطة! وإنّ أقلّ ما تُوصف به تلك المقاييس أنّها متحيّزةٌ، وممزّقةٌ، ومتعصّبةٌ، وأنانية، وإقليميّة، ومقطعيّةٌ، وعنصريّةٌ، وطائفيّةٌ، وطبقيّةٌ، وأسريّةٌ.

إذا كان تاريخ الأصنام يعرض نزاعاً مستمّراً على السّلطة والقدسيّة، فذلك لأنّ كلّ صنمٍ يظهر تكوينَ فئةٍ اجتماعيّةٍ، تشغل مركزاً خاصّاً، ولها مصالح وأغراضٌ معيّنةٌ، تتّصل بها مجموعةٌ من الأوهام، والأباطيل،

والأساطير، والخرافات التي تحاول أن تستر تلك المصالحَ والأغراض في إطارٍ ثقافيٍّ لا صلة له بتكوين تلك الفئة الاجتماعيّة وبمصالحها.

حاولنا أن نبيّن أنّ حقائق الوجدان الفرديّ خاضعةٌ للمجتمع الذي يعيش الفرد فيه. فقد أعدّ المجتمع الموضوعات الاجتماعيّة كافّةً، كالأصنام، والأوهام، والرّياء، والنّفاق، والتّحيّز، والأساطير، وغيرها، وعلّم المجتمعُ الفردَ، ودرّبه، ولقّنه كيفيّة تصنيف النّاس والموضوعات، وطلب إليه أن يتّبع أساليبَ خاصّةً للعمل والتّفكير، وانتظر منه أن يطبّق كلّ ذلك لأجل أن يكون عضواً ناجحاً؛ فلا يمكن للفرد أن يبدع الخرافاتِ، والأساطيرَ، والأصنام، ويؤسّس طرائق الرّياء، والنّفاق، والتّحيّز...من دون أن يصاحب إبداعه وأخيلته بعضٌ من أنواع الإدراك الجماعيّ! فإن أظهر الصّنم رغبةً في رفع مكانة أحد الأتباع وخفض منزلة أحد الذين عصوا أمره ورموه بالحصى والحجارة...فإنّه يكون قد رسم خطوطاً واضحةً للسّلوك، ووضع لافتاتٍ تهدي الآخرين على الطّريق الصّنميّ، ليسيروا فيه مسبّحين بحمده، ويحملون البُخُور، ويرتّلون آيات الولاء، ويقرؤون التعويذات لطرد الشّياطين، والأرواح الشّرّيرة، ويقدّمون أكباش الفداء.

**يُعدّ وجودُ الأصنام حدّاً أو خطّاً دفاعياً يحمي مصالح الفئات المتنازعة على النّفوذ والقدسيّة، وبفضل مساندة القوى الاجتماعيّة للأصنام، تميل الأصنام إلى تأليه أنفسها، (التأليه الذاتي) فتعتقد بأنّ امتيازاتها منزّلةٌ من السّماء، وتطلب إلى النّاس أن يعتقدوا بذلك، وتفرض أقسى العقوبات على من ينكر، وتدّعي**

بأنّ (الحالة الصّنميّة) أزليّةٌ خالدةٌ، لا يمكن تبديلُها بقوّة الإنسان الإراديّة والعقليّة، لأنّها فوق مستوى البشر، كما كان النّاس يعتقدون بـ "هتلر" و "موسوليني" و "ستالين" من حيث عبقريائهم وبطولاتهم إلى درجة أنّهم صاروا أنصافَ آلهةٍ.

وإذا كانت مهمّة الإنسان الأُولى في الحياة المحافظةَ على البقاء، فإنّ من الضّروريّ إذاً أن يتوسّل بالوسائل كافّةً التي تساعده في كفاحه من أجل البقاء، فقد وصل من خلال خبراته الأولى إلى وجود أصنامٍ تحمي الآخرين من الأرواح الشّرّيرة، وتطرد النّحس، وتجلب الخصب، والمطر، والدّفء، وتشفي المرضى، وتحمي الأسرة، وتقرّب بين العاشقين، فحريٌّ به ألّا يتهاون في الاعتقاد بها، والاستفادة من معجزاتها، وأعمالها الخارقة. وعندما آمن بها، ورأى أنّها ضروريّة لكيانه وبقائه، مال إلى التّعصّب لها، وإلى مقاومة كلّ محاولةٍ تريد تبديلها، حتّى تكوّنت لديه فكرة القدسيّة، والاحترام، والسّيطرة على ضميره.

يتطلّب قيام الصّنم إذاً وجود المحرّمات والنّواهي والأوامر، التي يستجيب لها الأفراد قبل أن يقدروا على مناقشتها وتحليلها ونقدها. وتقدّم الأصنام أساليب العمل، والتّفكير، وتفترض في الأفراد الطّاعة العمياء، **وقد أدّت الرّغبة أو الدّافع إلى المحافظة على البقاء إلى إيجاد فئاتٍ ذات أصنامٍ مختلفةٍ، ومتضاربةٍ، ومتنازعةٍ، لأنّ كلّ صنمٍ كان يرمز إلى مصالح الفئة التي أقامته، ممّا سبّب استمرار النّزاع والمعارضة، وتكوّنت حول كلّ صنمٍ مجموعةٌ من**

التّقاليد، والأعراف، والطّقوس، والأساطير، واتّصفت بالقوّة الملزِمة الدّينيّة والخُلقيّة، والاجتماعيّة، فلم تترك مجالاً للأفراد أن ينحرفوا عنها، أو أن يشطّوا عن قواعدها، حتّى بدا وكأنّ وجود الأصنام أساسيٌّ لكيان المجتمع، واستمراره، وتوازنه، وتضامن أعضائه.

توجد علاقةٌ متينةٌ بين تكوين الفئة الاجتماعيّة، واعتزازها بصنمها... وبين كمّيّة التّناقض والمعارضة المسموحِ بها بين أعضاء تلك الفئة، والجدل، والمناقشة، وإبداء الرّأي، فإذا كانت الفئة الاجتماعيّة تؤمن بالمبادئ الدّيمقراطيّة، وحرّيّة التّفكير، يصبح من السّهل جدّاً إنزالُ الأصنام من السّماء إلى الأرض، ووضعُها على خشبة التّشريح، والنّقد، والتّحليل، وبذلك يكثر التّناقض، ويزداد التّعارض، فتنهار الأصنام انهيارَ بيوت الرّمل التي يصنعها الأطفال! وإذا آمنت الفئة بتعذيب الضّمير، وسحق الوجدان، والسّكوت عن الحقّ، ولم تفسح المجال لإبداء الرّأي، فإنّها تتوخّى إحلال التّوازن، والتجانس بالقوّة، واستمرار الاعتزاز، والقدسيّة للأصنام.

وليس من المهمّ أن يشير الصّنم إلى وجود كائنٍ اجتماعيّ واحدٍ يرمز إلى كلّ ما يعتزّ به المجتمع، وإنّما إلى فئةٍ من الكائنات الاجتماعيّة، أو إلى مجموعةٍ من الأوهام والخرافات والأساطير. وسواءٌ كان الصّنم فرداً واحداً أو مجموعةً من الأفراد، أو مجموعةً من الأوهام والأساطير... فإنّ للصّنم أثراً عكسيّاً في شخصيّة الفرد. وإذا مارس ذلك الصّنم سيطرةً عظيمةً، وفَرَض أنماطاً خاصّةً من السّلوك، ولم يفسح مجالاً للإبداع، والاجتهاد الذّاتيّ... فإنّ من الصّعب

جدّاً أن يحافظ الصّنم على تجانس الفئة، وانسجامها بكبح أو بكبت آراء الأفراد ووجهاتِ نظرهم، ومن المسلّم به أن يرغب الصّنم في حماية مصالح الجماعة الذين أقاموه، وعانَوا أنواع المصاعب في نصبه، **ولكن من المعقول أن يسمح بشيءٍ من التّبديل والتّغيير حتّى لا يزداد التّناقض والتّعارض، ولا تنشط المقاومة، لأنّ مثل هذا التّبديل أساسيٌّ وجوهريٌّ في الاستمرار على الامتيازات والمصالح.**

وإذا كانت السّدنة المحيطة بالصّنم صغيرةَ الحجم، قليلةَ العدد، صار المجال المفسوح أمام الفرد ضيّقاً جدّاً لأنّه يتمثّل رأي تلك الفئة تمثيلاً كاملاً، وبالعكس فإن اتّسعت وكبرت، فإنّ بإمكانه أن يعبّر عن شخصيّته، وعليه أن يكون حذراً في التّخلّص من حالة القلق، وازدواج الشّخصيّة الذي يسبّبه انتماؤه لفئةٍ صغيرةٍ ذات صنمٍ معيّنٍ، لا تفسح له المجال للتّعبير عن ذاتيّته، وفئةٍ كبيرةٍ أخرى تتيح له فرصةً أكبر للإفصاح عن آرائه، وينشأ في مثل هذه الأحوال مركزان للولاء، أحدُهما يضمّ الفئة الصّغرى، والثّاني يضم الفئّة الكبرى؛ وليس من الضّروريّ أن يكون بين الولاءين نوعٌ من الانسجام والتّوافق. مثال ذلك الأفراد الذين يعبدون البقرة ويقدّسونها، وينزلون أقسى أنواع العقوبات بمن يمسّها بسوءٍ، ويمارسون طقوسهم في فئةٍ صغرى، وسط مجتمعٍ كبيرٍ يؤمن بعبادة الشّيطان أو صنمٍ آخر.

يسبّب مثلُ هذا النّزاع النّفسيّ تمزيقَ الضّمير وانقسامه، فليس من المستبعَد أبداً أن يعتدي أحد عبّاد الشّيطان على إحدى البقرات المقدّسات

السّائبات في الشّوارع، فتحدثُ مذبحةٌ كبيرةٌ بين الفئتين الاجتماعيّتين. أو أن تتنافس السّدنة المحيطة بالأصنام في السّبّ والشّتم، ونصب الأشراك، والمصائد للإيقاع بالمخالفين عن العبادة، فتنشأ حالةٌ شاذّة تتميّز بفقدان القيم الإنسانيّة وضياعِ المقاييس العلميّة المنطقيّة، وبالفوضى الخُلُقيّة. و إن كان العكس من ذلك، وصار المجتمع الأكبر يقدّس البقرة، ويحترمها، فإنّه يُطلب من أبناء الفئات الصّغرى تقديسُها واحترامُها، للمجاملة والتّضامن، **مثال ذلك موقف الضّبّاط والجنود الإنكليز حين كانوا سادةَ الهند، فإنّهم كانوا يحيّون الثّيران والبقراتِ السّائبةَ في الطّرقات بالتّحيّة العسكريّة حتّى يظهروا للهنود عبّادِ البقرة احترامهم للشّعائر الدّينيّة، مع علم أنّ الضّابط، أو الجنديّ البريطانيّ يضمر في قلبه السّخرية اللّاذعة** من بشرٍ يقدّسون البقرة، ويتركونها سائبةً تأكل ما لذّ وطاب من المخازن والحوانيت! ولعل مَثَلَ العرب المسلمين الذين هاجروا إلى أميركا أكثرُ وضوحاً، فقد نقل العرب المسلمون المهاجرون معهم دينَهم، ولغتَهم، وتقاليدَهم، وآدابَهم الاجتماعيّة ووجدوا أنفسهم في حالةٍ جديدةٍ تتعارض كلّ المعارضة مع تراثهم الاجتماعيّ، وتتطلّب منهم أن يتمثّلوا اللّغة الإنكليزيّة والآداب الأمريكيّة، وأن يفخروا بالتّاريخ الأمريكيّ، وأن ينتموا إلى النّوادي الأمريكيّة، ويقرؤوا الصّحف الأمريكيّة، ويعتزّوا بالقيم الأمريكيّة، وإذا فعل العرب ذلك فلابدّ من أن يغيّروا بعضاً من معتقداتهم، وأن ينقلوا فخرهم واعتزازهم من التّاريخ العربيّ الإسلاميّ إلى التّاريخ الأمريكيّ، وأن يتلذّذوا ويتذوقوا الأدب الأميركيّ؛ فينشأ في حالةٍ كهذه مركزان للولاء، أحدُهما يتركّز في الفئة الصّغيرة التي ينتمي إليها العربيّ المسلم،

والتي تبذل كلّ ما في وُسعِها للاحتفاظ بدينها، ولغتها، وتاريخها، وتقاليدها، فتجمع الأموال لبناء جامعٍ لها، ومدرسة تعلّم أبناءها العربيّة، وتتزاوج فيها بينها، وتطبع الصّحف بلغتها، وتتلذّذ بأنواع أطعمتها... وثانيهما يتعلّق بالمجتمع الأمريكيّ كلّه، **ومهما طال النّزاع بين هذين المركزين فلا يمكن أن يزول مركز الولاء الضّيّق، ولكن قد يتغلّب أحدهما على الآخر في ظروفٍ ومناسباتٍ معيّنةٍ.**

ففي الحرب الثّانية وقف الجنديّ الأميركيّ يابانيّ الأصل بجانب الجنود الأميركيّين في الهجوم على اليابان مثلاً، بينما وُضع اليابانيّون في أميركا في معسكراتٍ خاصّةٍ خوفاً من قيامهم بأعمال التّدمير والتّخريب! وبمعنىً آخر: إنّ المجتمع الأميركيّ لم يكن واثقاً بولاء اليابانيّين في أمريكا، وبهذا يكثر التّلوّن والسّلوك الحربائيّ ويزداد النّفاق الاجتماعيّ.

# الفصل الثاني

# البحث عن الأصنام

تتغلغل جذور الأصنام الاجتماعيّة، وما تنتجه عن وَهْمٍ وباطلٍ، وخرافةٍ، وأسطورةٍ في طبيعة الإنسان، لأنّ الصّنم عاملٌ أساسيٌّ في تفكير الإنسان، والوَهْمُ جزءٌ لا يمكن فصله عن تركيبه النّفسيّ، لأنّه يتحيّز بمحض إرادته، وما دام الأمر كذلك، فإنّ كلّ ما نصل إليه من معرفةٍ نسبيٌّ ومقيّدٌ بحدود تلك الأصنام والأوهام.

**إنّ الحقيقة هي أنّنا نُولد في عالمٍ مملوءٍ بالأوهام، والأصنام، والآراء غير المنطقيّة، ولسنا مخيّرين في قبولها أو رفضها، بل على العكس من ذلك! إنّنا مضطرّون لاكتسابها عربوناً لعضويتنا في المجتمع**؛ فمن المستحيل أن نجد إنساناً واحداً مجرّداً وخالياً من أنواع التّحيّز، والتّوهّم، والأنانيّة، والتّعصّب كافّةً، فإذا كان هذا الأمر ممكناً، أصبح الإنسان ممسوخاً لا طعم له، ولا لون، ولا رائحةً!.

وإذا حلّلنا بكلّ دقّةٍ خبراتنا النّفسيّة، وجدنا أنّ تلك الخبرات متأثّرةٌ بآراء الآخرين وأوهامهم، وبإمكاننا أن نأخذ إعلاناً سهلاً في الجرائد عن الصّابون أو زيت الشّعر، أو نوعٍ من المشروبات والأنسجة...وجدنا أنّها تستغلّ فكرة ظهور الإنسان بمظهرٍ لائقٍ في عيون وآراء الآخرين؛ وتحاول

المرأة مثلاً أن تظهر بمظهرٍ جذّابٍ حتّى تسترعي أنظار الآخرين، وتأسر انتباههم، ويرغب الرّجل كذلك في أن يظهر بمظهرٍ جيّدٍ ليوهم النّاس بسموّ الطّبقة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها، فيجرّب أن يختار كلماتِه، والجُمَلَ التي ينطق بها، وهذه هي الطّريقة التي نطوّر بها شخصياتِنا ونتعاهد قابليّاتِنا. فالمرأة في أميركا اليوم تتوسّل بكلّما تستطيع لتظهر رشيقةً، فتنقطع عن أكل بعضٍ من الموادّ الغذائيّة، فتفتح في وجهها أبواب الزّواج بعكس المرأة الرّوسية التي تميل إلى السّمنة، وتحاول المرأة الصّينية أن تحتفظ بجمال قدميها بلبس حذاءٍ من الحديد. وهكذا تملي الجماعة مقاييس الجمال والذّوق على الأفراد، ومن ثمّ يتعصّب لهذه المقاييس ويتحيّز.

**ينشأ التّحيّز في أحضان الأمّ، وفي الأسرة، وبين الأقارب والأصدقاء والمدرسة**، ولأنّ من المستحيل أن يُولد إنسانٌ، وينمو ويترعرع ويتأنّس خارج هذه المؤسّسات، فإنّ وهمَه وتحيّزه هما اللّذان يجعلانه إنساناً، وهما اللّذان يغرسان فيه الحبّ، والكراهية، والبغضاء، والخيَلاء، والخوف، والخجل، والغيرة، والحسد، والنّفاق، والرّياء، والخيانة، والإخلاص، والوفاء، والأمانة، ثمّ ينضم لفئةٍ معيّنةٍ.

كانت وجهة النّظر السّائدةُ قديماً في علم النّفس وغيره، أنّه ما دام الإنسان حيواناً قيميّاً متحيّزاً فمن الضّروريّ أن يتعصّب لفكرةٍ، وإنّ علم الاجتماع يدرس الفِكَر بِعَدِّها تفاعلاتٍ مقصودةً أو غير مقصودةٍ بين أحاسيس الإنسان، وعواطفه، وبين قوىً خفيّةٍ تكون سبباً في إلهامه ووحيه؛ فقد تخيّل

العرب مثلاً أنّ لكلّ شاعرٍ شيطاناً يلهمه القريض، وأنّ للشّعر شيطانين، أحدهما مُجيدٌ، واسمه الهوبر، والآخر مُفسِدٌ، واسمه الهوجل. ولم يكتف العرب بنسبة شعرهم إلى الشّياطين، بل سمَّوْها، فكان لكلٍّ شاعرٍ شيطانُه المسمّى! فشيطان الأعشى هو مسحل، وشيطان فرو بن قطن جهنام، وشيطان عبيد بن الأبرص هبيد، وشيطان امرئ القيس لافظ بن لاحظ، وشيطان زياد الذّبيانيّ هاذر، وهكذا فإنّ علم النّفس القديم، يعزو الإنتاج الفكريّ إلى العقل الباطن.

تحاول وجهة النّظر هذه أن تقصر البحث على أوهام الإنسان، وأفكاره على تكوينه الفسيولوجيّ، منعزلاً ومستقلًّا عن كلّ ما يحيط به، وتعدّ الرّأي مجرّد انعكاسٍ أو صدىً لما يعتوِر ضميرَ الإنسان من أحاسيسَ وانفعالاتٍ، ولِما يحدث لعواطفه من تبدّلٍ وتغيّر، أو لِما يخطر بباله من الفِكَر والآراء التي تأتي إليه عفواً عن طريق (اللّدُنّيّة). وأكّدت وجهة النّظر هذه الدّور المهمّ الذي يقوم به العباقرة، ورجالُ الفكر الموهوبون في خلق الحضارة وتوجيهها، وفي نموّها وازدهارها، وعَدَّتْهم المسيّرِين لحوادث التّاريخ، لِما يتميّزون به من قوىً خارقةٍ ومواهبَ نادرةٍ، ولم تكن تعترف بوجود أيّة صلةٍ بين التّطوّرات والتّحوّلات الاجتماعيّة، وبين تكوين الأوهام والآراء، وأشكالها ومضامينها.

من الممكن أن نعتبر الفيلسوف "نيتشه" من أوائل من بحث عن جذور الأوهام في طبيعة الإنسان، وقال: إنّ الإمكانات العقليّة مفيدةٌ، لأنّها تخلق أوهاماً، فمن دون تلك الأوهام يفقد الإنسان الإرادة للحياة. وقد ظنّ "نيتشه" أنّ إرادة الإنسان في الحصول على الحقيقة جزءٌ من إرادته في الحصول على

**السّلطة، ولم ير أيَّ نظامٍ في الطّبيعة والمجتمع، يمكن أن يكشف النّاس عنه. ويقول: إنّ أولئك الذين يدّعون إماطة اللّثام عن هذا النّظام خلال بحثهم عن المعرفة يخدعون أنفسهم، ويعتقدون بأنّهم يبحثون عن المعرفة؛ والحقيقةُ هي أنّ بحثهم مجرّدُ تغطيةٍ للحقيقة المُرّة القائلة: إنّ الفِكَرَ تساعد الفرد في نزاعه من أجل البقاء.** ولـمّا كان الإنسان منهمكاً في نضاله من أجل البقاء، فإنّ فِكَرَه ومعرفته أسلحةٌ مهمّةٌ في هذا النّضال، ولـمّا كان النّاس غيرَ متساوين في القوّة، فيجب أن يكون الضّعيف تحت رحمة القويّ دائماً، ولهذا يستعمل الضّعيف الدّهاء، والغشّ، والمعرفةَ في هذا الكفاح غير المتكافئ ضدّ القوى.

إذن كيف تظهر الإرادة في الحقيقة بين النّاس؟ لم ير "نيتشه" في هذه الإرادة برهاناً على الاهتمام بالمعرفة، ولكنّه رأى فيها دليلاً على الاهتمام بالحياة الاجتماعيّة؛ إذ إنّ النّاس لا يرغبون في الحقيقة، ولكنّهم يرغبون بالنّتائج العمليّة النّافعة التي تحصل من الرّغبة في الحقيقة؛ وإنّإحدى النّتائج العمليّة هي أنّ البحث عن المعرفة يساعد النّاس على توجيه أنفسهم في العالم، ولكنّ هذا البحث لا يتوخّى الوصول إلى المعرفة الحقيقيّة، وإنّما يهدف إلى التّوجيه، **وما دام الإنسان يعيش في مجتمعٍ متبدّلٍ فلن يستطيع أن يوجّه نفسه توجيهاً محكماً ومضبوطاً، فحريٌّ به أن يشوّه الواقع، ويزيّفه من أجل أن يحصل على توجيهٍ ضروريٍّ لبقائه، ويجب على الفرد أن يشوّه الواقع، ويزيّفه ليعيش فيه إلى الأبد.**

حاول "نيتشه" أن يكشف عن الدّافع ويزيّفه ليعيش فيه إلى الأبد، وحاول كذلك أن يكشف عن الدّافع الأساسيّ للسّلطة، والكامن فيها وراء كلّ

أنواع المعرفة، وكلّ أنماط السّلوك؛ ويرى أنّ الآراء والفِكَر أسلحةٌ في (الحرب الفكريّة) وإنّ الإدراك والمعرفة تعبيران للدّافع العضويّ لأجل المحافظة على الذّات، وعندما قال "نيتشه":إنّ الفِكَر أسلحةٌ يستخدمها الضّعفاء في كفاحهم من أجل البقاء. رأى فيها علائم الانحلال والتّدهور البشريّ، لذا أشاد بالقوّة وتمجّدَها.

أمّا العالم الإيطاليّ "باريتو" فقد اهتمّ بالأسباب والدّوافع التي تضطر النّاس إلى السّلوك الحربائيّ، والنّفاق، وتبديل العقائد وتغطية الدّوافع الحقيقيّة التي تدفعهم للقيام ببعضٍ من الأعمال، كإعانة الفقراء، والمؤسّسات الخيريّة، وإكساء اليتامى، وبناء المستشفيات والملاجئ، والمياتم، فأرجعها إلى بعضٍ من العناصر الثّابتة التي تتغلغل في طبيعة الإنسان، وتبقى كامنةً فيها، تسير وتوجّه سلوك النّاس، ولكنّ النّاس لا يجترئون على التّحدّث عنها بسبب ما تفرضه وسائل السّيطرة الاجتماعيّة من قسرٍ وضغطٍ عليها، سمّاها **(الرّواسب)** أي الأسسُ الثّابتة التي استقرّت وثبتت في ضمير الإنسان، وإلى جانب هذه (الرّواسب) الثّابتة المستقرّة وُجدت أنواعٌ أخرى من السّلوك متفرّعةٌ ومشتقّة، ولا تضارع (الرّواسب) في قوّتها، وصلابتها، وثباتها، سمّاها **(المشتقّات)**؛ وقال: إنّها غير منطقيةٍ، وغير تجريبيّة، قسّمها إلى أربعة أنواع هي: التّأكيدات، والسّلطة، والمشتقّات التي تتّفق مع العواطف أو المبادئ، والمشتقات التي تقف عند حدود البراهين اللّفظيّة. ويعني بالتّأكيدات ألفاظ الجزم والإثبات غير الخاضعة للخبرة والبحث العلميّ، بالرّغم من الاستعانة ببعضٍ من

المعلومات الخياليّة والواقعيّة. وقد تُقبَل السّلطةُ ويرضاها النّاس، ولو أنّها لا تتمتّع بصلاحيات ذا قوّةٍ تنفيذيّةٍ. مثال ذلك السّلطة التي تتمتّع بها الأعراف والتّقاليد التي تشبه إلى حدٍّ كبيرِ الإرادةَ والسّلطةَ الإلهيّة؛ أمّا المشتقّات التي دعاها (**البراهين اللّفظيّة**) فإنّها تتّصل بأنموذجاتٍ مختلفةٍ ومتعدّدةٍ من الرّواسب، وإنّ المصدر الرّئيس للخطأ في استعمال المصطلحات والكلمات التي لا تتّصل اتّصالاً تامّاً بواقع الموضوعات، وأكّد "باريتو" على أنّ الرّواسب تختلف في نوعيّتها وشدّتها، وتوجيهها بالنّسبة للمجتمع والطّبقة والفئة، وأنّها تتباين بالنّسبة للمهنة والعائلة وغيرهما من العوامل.

ولكنّ "فرويد" أرجع سبب قيام الأوهام، والأصنام، والأباطيل إلى الطّبيعة البشريّة، وقال: **إنّه لا يمكن إدراك بحث الإنسان عن المعرفة واهتمامه بالأوهام، والنّفاق إدراكاً مباشراً، فالمعنى الذي يبدو لأوّل وهلةٍ في أفكار الإنسان ليس هو المعنى الحقيقيّ لها، ويمكن أن ندرك أعمال الإنسان وفِكَرَه بسهولةٍ جدّاً، إذا فُسّرت وحُلّلت على ضوء خبرات حياته الماضية.**

عدّ "نيتشه" الفِكَر سلاحاً للحصول على السّلطة، أمّا "فرويد" فقال: إنّها وسائل يستخدمها الفرد إمّا للتّبرير أو للإعلاء والتّسامي، أي تبرير الحالة التي تتعارض مع دوافع الفرد العضويّة الأساسيّة (**الجنس والاعتداء**) التي لا يستطيع مقاومتها وتبديلها، فيستسلم لها، ثمّ يبدأ في التّفتيش عن المسوّغات والأسباب التي تبرّر وجودها. أو إنّه يتسامى في ذلك على الدّوافع العضويّة في

أمورٍ لا علاقة لها بالتّنفيس عنها. كالفنون، والفعاليات الإنسانيّة، والانعطاف على الدّين.

تستند نظريّة "فرويد" على مبدأ اللّذة والألم، فمن الممكن أن نتّخذ من مقياس الطّمأنينة دليلاً للحكم على أعمال الإنسان وفِكَرِه، ولمّا كان السّلوك البشريّ كلّه يؤديّ إمّا إلى اللّذة، وإمّا إلى الألم، فإنّ الفرد يقرّر كلّ عملٍ، ولو من دون شعور بالنّسبة إلى الزّيادة من اللّذّة أو التّخلص من الألم، ويمكن أن يحكم أيضاً على عبادة الأصنام بعلاقتها بخبرة اللّذة، وكان "فرويد" يرى في التّحليل النّفسيّ إمكان التّخلّص من الأوهام الأصنام، ولم يقل بإعادة تنظيم المجتمع بأجمعه؛ **ووصل إلى فرضيّته هذه من ملحوظاته السّريريّة حين كان يعالج المرضى ويساعدهم في الوصول إلى حلّ مشكلاتهم العاطفيّة بإتاحة الفرصة للفرد لأن يعيد النّظر في تقدير خبرات حياته الماضية، وخاصّةً تلك الخبرات المكبوتة في سنيّ الطّفولة**، وأرجع (فرويد) مصدر التّحيّز إلى الاضطرابات العاطفيّة، وإلى عُقدَتَيْ **"أوديب"** و**"ألكترا"** ويصرّ على عدم الأخذ بأيّة فكرةٍ بصورةٍ جدّيةٍ أبداً، لأنّها في الحقيقة ليست هي الفكرة التي تكمن في عقل الإنسان. وتعني عقدة "أوديب" حبّ الولد لأمّه، وتعني عقدة "ألكترا" حبّ البنت لأبيها، فيحاول الولد الاستئثار بأمّه، ويعدّ أباه منافساً له في محبّتها، وترغب البنت في الاستئثار بأبيها، وتعدّ أمّها منافسةً لها؛ فإذا أردنا معرفة (العنصر الحقيقيّ) لأيّة خرافةٍ أو وَهْمٍ، فلسنا بحاجةٍ لأن نسأل: (ماذا قال الإنسان) ولكن: (لماذا قال تلك الخرافة).

أمّا إذا استطاع الفرد أن يحتفظ برباطة جأشه عندما يروي كذباً فظيعاً، فإنّ له مقدرةً على أن يهزم ويخفي عن هذا التّحقيق دوافعَه الأصليّة، فنعدّ إذاً ما يقوله الإنسان مجرّد (تظاهر سطحيٌّ) للذّات التي تريد أن توفّق بين الدّوافع الأساسيّة الحياتيّة من جهة وبين السّيطرة الاجتماعيّة من جهةٍ أخرى! أي إنّها همزة الوصل بين الحيويّة الزّاخرة، وأساليب التّنفيس التي أقرّها المجتمع و رضي بها.

**تصبح آراء الإنسان، وفِكَرُه، وتحيّزه، وأنانيّته تنفيساً لفظيّاً يوازن بين المنازعات الدّاخليّة الكامنة في ضمير الفرد، فإذا ساءت العلاقة بين الدّوافع الأوّليّة، وبين الخبرة، فإنّ الحلّ المعقول والطّريق السّويّ للتّخلّص من الفِكَر الكامنة غير المرغوب فيها، يكون بالكشف عن الطّاقة الموجودة وتصرّفها بالاعتقادات بالأوهام والأساطير، والخرافات المعقولة اجتماعياً، والتي تكون على شكل حركاتٍ إنسانيّةٍ، وإنجازاتٍ فنيّةٍ، وانهماكٍ في الطّقوس الدّينيّة.**
وقيامُنا بهذا العمل لا يبدّل الدّافع الأساسيّ أبداً! ولكن الذي يتبدّل هو الموضوع المتّصل به ، أي إنّنا حاولنا أن ننقل الموضوع المتّصل بالدّافع الأساسيّ العضويّ المحّرك لسلوك الإنسان. إلى موضوعٍ آخر لا علاقة له بالدّافع أبداً، ولكنّه مقبولٌ اجتماعيّاً، وقد صنعه الإنسان للتّنفيس من ضغط الدّوافع الأساسيّة بأسلوبٍ مُصطَنع، أو يلجأ إلى قبول (الحالة الصّنميّة) ومن ثمّ يفتّش عن أنواع المبرّرات للبرهنة على ضرورة بقائها.

يمكن أن ننظر إلى طبيعة الإنسان من فرضيّتين مختلفتين: الأولى هي التي تدّعي بأنّها **(موروثة)**، والثّانية:**(مكتسبة)**،ولا يأخذ علماء الاجتماع بالفرضيّة الأولى، وإنّما يتمسّكون بالفرضيّة الثّانية، لأنّها لا تعترف بوجود كائنٍ بشريٍّ واحدٍ، وُلد في غابةٍ، وعاش وترعرع ثمّ صار إنساناً له لغةٌ، وعواطفُ، ورموزٌ، وقيمٌ، وأوهامٌ، وأصنامٌ. هذه هي العوامل النّفسيّة التي تغذّي طبيعة الإنسان بعناصرها الأساسيّة؛ فهي التي تعلّمه الأنانيّة، والكبرياء، والاستحواذ على الآخرين، إذ يتكوّن الكبرياء من مقارنة الإنسان نفسَه بالآخرين، أي إنّ المتكبّر يحتاج إلى مرآة تنعكس فيها صورته الشّخصيّة مكبَّرةً وموسّعةً، فيتّخذ من الأنانيّة وسيلةً لفرض سيطرته، واستحواذه على الآخرين.

**لقد ثبت أنّ ما دُعي قديماً (صوت الضّمير) إنّما هو في الحقيقة صوت الفئة الاجتماعيّة، وليس صوتاً خفيّاً قادماً من عالم الغيب، يكلّم الإنسان في وحدته وخلوته، ولمّا كان الإنسان يملك ذاكرةً تستوعب خرافاتِ وأوهامَ وأساطيرَ الجماعة... فإنّ بإمكانه أن يطوّر وعياً لصوت الفئة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها**، ويرجع ذلك المصدر إلى النّواهي، والأوامر، والمحرّمات الاجتماعيّة، إذ لا يمكن من دون ذلك أن يتكوّن لدى الإنسان وعيٌ أو شعورٌ! فالضّمير إذاً ما هو في الحقيقة إلّا صدىً لصوت الجماعة أو لقيم الجماعة، وبهذا يصبح الضّمير أداةً فعّالةً في السّيطرة على سلوك الأفراد وعلى الانتاج الفكريّ.

ولكن من الملحوظ أنّ أنواعاً متعدّدةً من الوعي، ومن الأصوات، تتكوّن لدى الإنسان بقدر ما ينتمي إلى فئاتٍ اجتماعيّةٍ مختلفةٍ، ولذلك تتعقّد

حياة الإنسان بسبب تضارب الفئات الاجتماعيّة، واختلافِ الأصوات التي تدوّي في ضميره، وإنّنا ننظر، ونطّل على أنفسنا من خلال ما تعكسه آراء الجماعة، وصورُها الذّهنيّة، ومواقفها، وليست هنالك طريقةٌ أخرى لمعرفة أنفسنا غير هذه الطّريقة، فاحترام النّفس مثلاً ما هو إلّا الاحترام الذي تناله من الجماعة، وحتّى النّجاح، والشّهرة، واللّقب، ما هي إلّا التّقدير الذي يبديه الآخرون نحو فعاليات بعضٍ من الأفراد، فلقد وضعت الجماعة بعضاً من المقاييس وبعضاً من الأصنام، وطلبت من الأفراد أن يتوجّهوا نحوها، ليكون النّجاح حليفَهم.

**ولْنضربْ مثالاً على ذلك في العلاقة في روما بين السّادة الأشراف والعبيد، حين كان للسّيّد الشّريف الحقّفي أن يعاقب عبده متى شاء وبأيّة عقوبة يشاء، حتّى ولو كانت عقوبة الإعدام، من دون أن يجد غضاضةً أو يشعرَ بوخزة ضميرٍ! أضف إلى ذلك أنّ الأصنام الاجتماعيّة كانت تطلب من العبد أن يتقبّل ذلك بكلّ رحابة صدرٍ.**

الحقّ هو أنّ مفهوماتنا عن الواقع ما هي إلّا أوهامٌ مجرّدةٌ، لا يمكن أن تستوعب كلَّ ما يتضمّنه الواقع من حقائق، ولا تقدر أن تحيط به إحاطةً تامّةً، ويشتمل الواقع على جوانبَ متعدّدةٍ ومتشابكةٍ، وليس بميسور الكائن الاجتماعيّ أن يلمّ بها، ثمّ إنّ أوهام الإنسان وخرافاته ما هي إلّا وسائل تناسب رغائبه التي ترتكز حول هدفٍ معيّنٍ في حالةٍ خاصّةٍ.

لم يأخذ علماء الاجتماع بفكرة أنّ الفرد ذرّةٌ منعزلةٌ عن بقيّة أفراد المجتمع، وأنّ الفِكَر انعكاساتٌ أو تفاعلاتٌ نفسيّةٌ، وأنّ الخرافة تبدأ بمجرّد صدفةٍ تسنح لأحد الأفراد ومن ثمّ تنتشر! ويرجع الفضل في دحض وجهة النّظر هذه إلى مؤسّس علم الاجتماع **"اوكست كونت"** الذي يقول: إنّ الفرد فكرةٌ مجرّدةٌ، وإنّ المجتمع هو الواقع الحقيقيّ. وقد ربط بين فِكَرِ النّاس وأوهامِهِم، وبين المراحل التي يتطوّر خلالها المجتمع في قانون سمّاه **(القانون ذو المراحل الثّلاث)**.

**١- المرحلة اللّاهوتيّة، حيث تتّصل المعرفة بمجتمعٍ بدائيٍ سهلٍ.**
**٢- المرحلة الميتافزيقيّة، التي تتميّز بالمجتمع الإقطاعيّ.**
**٣- المرحلة الوضعيّة، التي تتّصف بالمجتمع الصّناعيّ.**

وأراد "كونت" بقانونه أن يجمع بين القوى المادّيّة والقوى الرّوحيّة، ففي حقبة عبادة الأصنام، تأسّست العائلة والمجتمع الخاصّ الذي كان سبباً في ظهور الدّولة؛ وفي مرحلة تعدّد الآلهة ظهرت الإمبراطوريّات، وتميّزت الحياة السّياسيّة ببروز المهرّجين، ومؤسّسة العبوديّة، وعندما تلاشت الإمبراطوريّات، وقوى نبلاء الأراضي، تحوّلت في الوقت ذاته مؤسّسة العبوديّة إلى **(أقنان الأرض)** ومهّدت الطّريق لظهور الإقطاع، وإذا ما وصلت الإنسانيّة إلى المرحلة الأخيرة، فسيصبح بيدها كلّ الوسائل، والإمكانات التي تساعدها على إدارة المجتمع، والسّيطرة عليه وتغييره من حالةٍ إلى أخرى.

حاول المفكّرون والفلاسفة أن يجدوا (سبب الأسباب) أو **(العامل الوحيد)** الذي يرجع إليه ظهور الأوهام، والأصنام، والخرافات، وتطوّرها، وازدهارها ثمّ انحلالها وموتها، فوصلوا إلى مختلف النّظريّات الجبْريّة الحتميّة التي تحاول أن تفسّر الظّاهرات الاجتماعيّة والتّاريخيّة كافّةً بعاملٍ واحدٍ، كالتّفسير الجغرافيّ، والاقتصاديّ، والتّاريخيّ، والنّفسيّ، والدّينيّ، وغيرها؛ وانتقل بذلك مركز الثّقل في البحث عن الأصنام، والأوهام، والنّفاق من أخيلة الفرد وتصوّراته، ووجدانه... ومن القوى الخفيّة كالشّياطين والإلهام الرّوحيّ إلى عواملَ خارجَ كيان الفرد، مثل نظام المجتمع الاقتصاديّ، ووسائل الانتاج، وأثر المحيط الجغرافيّ.

**إنّ الأمر الذي يعنينا، يتلخّص في التثبّت من العلاقة الموجودة بين التّركيب، أو (التّكوين أو الوجود الاجتماعيّ) وبين الأوهام، والأصنام التي تدور حولها أساطير النّاس، وخرافاتهم**؛ ولمّا كانت أوجه التّراكيب الاجتماعيّة متعدّدةٌ، وأنّ ظروف الوجود الاجتماعيّ مختلفةٌ، فمن المنتظر إذاً أن تتعدّد الآراء، وتختلف الأصنام، وتتباين بمقدار اختلاف التّراكيب الاجتماعيّة وتعدّد الحالات.

فلو أخذنا مثالاً عاديّاً عن التّفكير الانقساميّ، وعن البلبلة، والقلق الموجودَيْن في المجتمع، وأردنا التّعرف على الأسباب والعوامل التي أدّت إلى بروز تلك الظّاهرات... لوجدنا اختلافاً كبيراً في الأوهام والآراء يتوزّع من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، فقد يُرجِع بعضهم أوهام الانقسام، والتّصدّع،

والتّباغض الاجتماعيّ إلى عدم وجود طبقةٍ وسطى تقدر على التّوفيق بين أصنام وأوهام طرفين متناقضين هما: جماهير الفلّاحين، وحفنةٌ من الإقطاعيّين، بحيث يكون صنمُها الجديد ذا قدرةٍ، وسلطةٍ، ودهاءٍ، وحيلةٍ، يتبنّى أوهام الفلّاحين، وأساطيرَهم التي لا تتنافر مع أصنام الإقطاعيّين، وأوهامهم، ويعمل بالطّرائق السّلميّة المشروعة على التّوفيق والانسجام، ليزيل التّنافر، والتّباعد، والتّحاسد؛ **وقد يحلّل بعضهم أزمة التّصادم، والتّنازع بين الأصنام، في أنّها مدّة انتقالٍ من أصنامٍ تقليديّةٍ فقدت حيويّتها، وفعاليتها، وانحراف النّاس عن الأوهام القديمة، وتطلعاتهم... إلى الأصنام الجديدة المتصاعدة.** وقد يقول آخرون بظهور الأصنام والأوهام في حالةٍ بائسةٍ يستغلّ فيها الإنسان أخاه الإنسان، فينقسم المجتمع إلى فئاتٍ متنازعةٍ على القوت والعيش، أو يلتمس كاتبٌ آخرُ السّبب في ظهور (واعظي السّلاطين) الذين ينشرون الأوهام والأباطيل، للدّفاع عن الحالة القائمة، وحمايتها، وإلقاء المسؤوليّة على عاتق المحرومين.

ومهما اختلفت وجهات النّظر في قيام الأصنام التي تعمل على توسيع شقّة الخلاف، وتمزيق وحدة الأمّة، فمن الضّروريّ أن نكشف النّقاب عن العلاقة بين الأسس الوجوديّة التي تصمّم أوهام النّاس وخرافاتهم، وبين المصالح الشّخصيّة، فهل إنّ الأوهام والأصنام مجرّد انعكاسٍ للعوامل الاقتصاديّة؟ أم إنّ الظّروف الطّبيعيّة، كالحرارة، والرّطوبة، والموارد الطّبيعيّة هي التي تقرّر نوع الانتاج الفكريّ؟ أم إنّ المؤسّسات الاجتماعيّة، والسّياسيّة،

والاقتصاديّة، والثّقافيّة، هي التي تحدّد، وتعيّن سلطة، وقدسيّة الأصنام، وما يحيط بها من إنتاجٍ عقليٍّ؟ وما هي طبيعة العلاقة بين حقائق الوجود الاجتماعيّ، وبين الأوهام والخرافات؟ هل هي علاقة جبريّةٌ وحتميّةٌ؟ أم تجريبيّةٌ؟ أو علاقة توافقٍ وانسجامٍ؟

هناك أسبابٌ عديدةٌ وجيهةٌ تدعونا إلى البحث عن المصادر التي انبثقت عنها الأوهام، والأساطير، والآراء، والفِكَر بهدف التّأكّد من مدى مطابقتها للواقع، لأنّ الحالة التي نعيش فيها الآن، تتميّز بالصّراع الفكريّ، والتّصادم القيميّ على أهمّيّة الأصنام، وضرورة الأوهام لإحلال التّوازن والاستقرار. **وبالطّبع إنّ التّوازن الكلّيّ والاستقرار المستمرّ غير مفيدَيْن، لأنّهما يدلّان على التّعفّن، ويؤدّيان إلى الانحلال، والتّدهور، وغير ممكنَيْن، لأنّنا نعيش في تبدّلٍ دائمٍ.**

لقد تبنّت كلّ فئةٍ من الفئات خرافةً معيّنةً، أو وهماً خاصّاً والتجأت إلى صنمٍ للدّفاع عن مصالحها، وتبرير أهدافها، واتّهمت الفئات الأخرى في خطأ خرافتها وأسطورتها، ولهذا لا يمكن قبول الخرافات والأساطير، والتّسليم بها إذا لم نبحث عن الأسس الوجوديّة لها، فهل هي أسسٌ اجتماعيّةٌ تشتمل على المكانة أو المنزلة الاجتماعيّة، والطّبقة، والمهنة، وأساليب الإنتاج، وتكوين الجماعة كالحزب السّياسيّ، والطّائفة، والحالة التّاريخيّة، والتّعصّب العنصريّ، والتّحوّلات الاجتماعيّة، كالمنافسة، والنّزاع، والتّوافق من أجل السّلطة والقدسيّة؟ أم هي أسسٌ حضاريّةٌ كالقيم، والنّظام الخُلُقيّ، والرّوح الجماهيريّة،

والرّأي العامّ، والعقليّة الحضاريّة؟ وما هي الفائدة من البحث عن الأسس الوجوديّة للخرافات، والأوهام، والأصنام؟ فهل إنّ قيامنا بذلك يدفعنا إلى الحصول على السّلطة، والاستقرار، والتّوجيه، والاستغلال، والتّحفيز، وتغيير سلوك الجماهير؟!

**تسود في كلّ مرحلةٍ من مراحل التّاريخ، وفي كلّ فئةٍ اجتماعيّةٍ خرافةٌ، أو وهمٌ يدعوان النّاس إلى العمل والتّضامن، وهم في كلّ مرّةٍ يظنّون أنّه الوهم الأخير الذي سيحقّق لهم السّعادة، والطّمأنينة في الدّنيا والآخرة، وسرعان ما يكتشفون أنّها مجرّد خرافةٍ زائلةٍ ومؤقّتةٍ ليس إلّا.**

كانت الطّريقة القديمة في دراسة الخلافات والمنازعات على الأوهام والأصنام... تكتفي بالجدل النّظريّ، أمّا الآن فيجب أن يُماط اللّثام عن المصالح الأنانيّة المختلفة، أو الكامنة فيما وراء الأوهام والأصنام، لأنّ معالم الأمور الظّاهريّة التي تُدرك بالحواسّ، لا تفسّر الواقع أبداً! فعلينا أن نتغلغل فيما وراء الأمور الظّاهريّة التي تقع في نطاق الإدراك الحسّيّ، فلا يمكن أن نثق بما يرويه المعارضون، ونسلّم به تسليماً تامّاً، فمن الواجب أن نتأكّد من المصلحة أو الهدف الذي يخفيه النّاس الذين يتشدّقون بالطّريقة العلميّة، والوطنيّة، والمثل العليا، ويتزمّتون في تطبيق المقاييس الصّنميّة الأنانيّة المتحيّزة، للتّفريق بين النّاس وتشتيت شملهم.

ربط الفيلسوف **"فرنسيس بيكون"** بين المعرفة والأوهام الاجتماعيّة، للبحث عن مشكلة التّحيّز والأنانيّة التي تَحُوْلُ دون الحصول على الحقائق الموضوعيّة، فإليه يرجع الفضل في محاولة تخليص العقل من النّواقص والهاويات والمزالق، أي الأوهام والصّورة التي ترتسم في الذّهن عن الحقيقة، ولكنّها ليست الحقيقة ذاتها، أي الفكرة التي تعدّ خطأ . بأنّها موضوعيّةٌ، وحقيقيّةٌ، وهي ليست بشيءٍ من الواقع الخارجيّ، وقال: إنّ تلك الفكرة أو الصّورة الذّهنيّة، هي مصدر كّل الغلطات التي يقع الإنسان فيها، **وأنّ أوّل واجبٍ من واجبات المنطق، أن يتعقّب تلك الغلطات واحدةً بعد الأخرى، ليمحو أثرها، ويجتثّ جذورها، لتسلَم المعرفة من الشّوائب، والنّقائص، ويستقيم التّفكير، ويتخلّص الإنسان من كلّ أنواع التّحيّز، والأنانيّة، والتّعصّب، فيكون في حالةٍ يرى فيها الحقيقة الواقعيّة ناصعةً، مستقلّةً، منعزلةً عن كلّ ما يُلصَق بها من أحكامٍ ذاتيّةٍ.**

واعتقد **"بيكون"** بأنّ العقل البشريّ كجزءٍ من عالمٍ منظّمٍ تنظيماً إلهيّاً عبارةٌ عن وسيلةٍ صالحةٍ لفهم الطّبيعة وإدراكها، وظنّ بأنّ الإحاطة بالطّبيعة، تزيد في قوى الإنسان وسيطرته، ولهذا عدّ المعرفة قوّةً بيد الإنسان، ولكن تحول دون هذه المعرفة بعضٌ من الأوهام التي ترجع جذورُها وأصولها إمّا إلى الطّبيعة البشريّة، أو إلى طبيعة الفرد وحدّه. وقال: إنّ هذه الأوهام تَظْهَرُ من اجتماع النّاس بعضهم مع بعضٍ، أو تنتج من العقائد الفلسفيّة؛ وقد قسم تلك

الأوهام إلى أربعة أصناف: أوهام الجنس البشريّ، وأوهام الكهف (الفرد) وأوهام السّوق (التّجارة) وأوهام المسرح (النّظُم الفلسفيّة).

أراد الفيلسوف **"بيكون"** بنظريّة الأوهام أن يخلّص العقل من نقائصه وشوائبه، واعتقد بأنّ هذه الشّوائب مؤقّتةٌ وطارئةٌ، وليست نقائصَ موروثةً في صلب التّكوين العقليّ للفرد. ففي الوقت الذي نعرف فيه السّبب الذي يحول دون المعرفة، نستطيع أن نلحظ الخطأ وأن نتخلّص منه.

ما قاله **"بيكون"** هو أنّ تلك الأوهام تقيّد العقل بالأغلال، فتقعده عن البحث وراء الحقيقة، وظنّ أنّ العلم وسيلةٌ لغايةٍ عمليّةٍ في حياة الإنسان، أي إنّ (العلم قوّةٌ) وهو أطول القوى بقاءً، فيستطيع أن يكون سيّد الطّبيعة، يفهم كنهها الحقيقيّ فهماً صحيحاً؛ فعنده إذاً: إنّ دراسة العالم الخارجيّ لا تُقصد إلّا لكي تعين العقل البشريّ على فرض سيادته على الطّبيعة، كذلك هو يشير إلى وجوب الحصول على المعرفة المجرّدة عن الأوهام والخرافات.. و (ليس من أجل اللّذة، والمتعة العقليّة، أو من أجل المهاترات والمنازعات، أو الشّعور بالاستحواذ والسّيادة على الآخرين، أو الحصول على ربحٍ وفائدةٍ، أو من أجل الشّهرة أو السّلطة، أو أيّ شيءٍ آخرَ وضيعٍ، وإنّما من أجل استخدامها للحياة، بحيث إنّها تتحكّم فيها، وتعمل على كمالها في إطارٍ من المحبّة).

عزا **"بيكون"** الخرافات والأوهام التي يتوخّى البحثُ عن المعرفة التّخلّصَ منها انتقالاً إلى المعتقدات الضّالّة التي تخدم مصالح رجال الدّين؛

وكانت نظريّة الأوهام في بعضٍ من مظاهرها سلاحاً استُخدِم في الحرب التي كانت قائمةً بين العلم والكنيسة، وكانت تقوم على فكرة الفصل التّامّ بين العلم واللّاهوت، بهدف ازدهارهما ونموّهما المضطرد، وأكد "بيكون" الفكرة ذاتها في هجومه على المتعصّبين المتحمّسين الذين يقاومون العلم من أجل المغالاة في سلطة الدّولة وهيمنتها. كما انتقد التّعليم في الجامعات والكلّيّات الذي يقصر مهمّة التّعليم على دراسة كتب بعضٍ من المؤلّفين، وفرض آرائهم على الطّلّاب؛ فإذا أراد أحد الطّلّاب أن يبيّن رأياً معاكساً، أو ينتقد ما جاء فيها، اتّهمه الآخرون بالجهل والشّغب. كذلك فرّق بين التّبدّل والتّغيير في الدّولة وفي العلم! فقال: تحاول الدّولة أن تحافظ على المؤسسات الموجودة لديها، فتقاوم ظهور كلّ وهمٍ أو صنمٍ جديدٍ يريد تغيير كيانها، أو القضاء عليه، بينما لا تمكن تنمية العلم إلّا بإتاحة الفرصة وتوافر الحرّيّة لظهور الآراء الجديدة؛ فليس من المعقول أن نتّهم العالِم المبدع بالشّغب والانحراف إذا خالف أصنامنا وأوهامنا، لأنّه إنسانٌ ذو عقيدةٍ سليمةٍ، ولكنّه يرى عدم إمكان تطبيق العقل السّليم في دراسة طبيعة السّلطة وامتيازاتها، وصلاحياتها، لأنّ السّلطة تقوم على الدّعاية، والشّهرة، والرّهبة، ولا تعتمد على التّدليل، والحجج المنطقيّة.

ثمّ جاء فلاسفةٌ آخرون من أمثال "دي تراسي" و "هيلفتيوس" و "كوندلاك" يؤكّدون على أنّ الأوهام والأصنام، تتكوّن من مجموعةِ التّحيّزات والأنانيّات التي تشوّه أفكار الفرد، وتضلّل عقله. وقالوا: إنّ النّاس لا يستطيعون أن يفهموا شؤون السّلطة والمجتمع فهماً حقيقيّاً، لأنّ منزلتهم في

المجتمع تضطرهم إلى أن يختاروا حقائق معيّنةً، وأن يفسّروها تفسيراً يتّفق مع تحيّزهم ووهمهم؛ وفي الوقت ذاته يهتمّ السّلطان اهتماماً كبيراً في كيفيّة تحليل المشكلات السّياسيّة، والاجتماعيّة، وتفسيرها؛ ويصبح إذاً وهمُ النّاس وخرافاتهم مصمَّمَين، ومقرَّرَين اجتماعيّاً بالأسلوب ذاته الذي يشوّه المصالح السّياسيّة والاجتماعيّة للفئات الاجتماعيّة المختلفة في المجتمع، وكان أكثر هجومهم موجّهاً لمقاومة كلّ أنواع التّحيّز التي تبنّاها دعاة الكنيسة والسّلطة على السّواء.

وظنّ "**دي تراسي**" أنّ سهولة الوصول إلى الحقيقة تكون بإخضاع الفِكَرِ إلى الإدراك الحسّيّ، بينما حاول "**هيلفتيوس**" أن ينقّي الفِكَر من كلّ شائبةٍ بالبرهنة على كيفيّة ظهور تلك الفِكَر وانبثاقها من محيطٍ اجتماعيٍّ خاصٍّ بها. واتّفق الاثنان على أنّ التّحليل المنطقيّ للفِكَرِ والأوهام ضروريٌّ للوصول إلى التّفكير الصّحيح؛ ويختلف هؤلاء الفلاسفةُ عن "**بيكون**" في أنّهم قالوا: **إنّ التّفكير الصّحيح شرطٌ أساسيٌّ وجوهريٌّ للعمل السّياسيّ الصّحيح. بينما أصرّ "بيكون" على حاجة السّلطة إلى خلق الخرافات والأوهام**، فلا يستطيع المشرّعون أن يضعوا قانوناً عادلاً إذا لم يعرفوا التّطوّرات التي مرّت بها الأوهام والخرافات التي تتحكّم في أساليب العمل والتّفكير.

وظنّ "**هيلفتيوس**" بأنّ أوهام الإنسان وفِكَرَه نتاجٌ لمحيطه، وأنّ بالإمكان تقويمَ سلوك الإنسان وتوجيهَه بالتّربيّة التي ستضع أنموذجاً جديداً للإنسان، نتيجةً للإصلاحات التي تنوي القيام بها، ولكن لمّا كانت السّلطة

مسيطرةً على المؤسّسات التّربويّة صار من الضّروريّ أن نبدّل الأسس والمبادئ التي تقوم عليها السّلطة من أجل تحقيق الإصلاحات التّربويّة؛ ويرى "**هيلفتيوس**" أنّ النّاس يركضون وراء مصالحهم الذّاتيّة في محيطٍ اجتماعيٍّ يضع حدوداً وقيوداً على ما يعتقدون به، ويجعله مطابقاً ومنسجماً مع مصالحهم الشّخصيّة، فتصبح أوهام النّاس وخرافاتهم عن الحالة الاجتماعيّة التي يعيشون فيها وسيلةً من الوسائل الفعّالة التي يحقّقون بها، أو يحافظون على مصالحهم.

**يحاول الذين بأيديهم السّلطة أن يحافظوا على امتيازاتهم، وذلك بأن يشيعوا بين النّاس الأوهامَ، والخرافاتِ، والأساطيرَ القائلةَ: إنّ امتيازاتهم هبةٌ من الله، وأنّ القوانين التي تحافظ على تلك الامتيازات غير قابلةٍ للتّبديل والتّحوير**؛ ويقول "**هيلفتيوس**":إنّ بقدرة الفلسفة أن تميط اللّثام عن أنانيّاتٍ وتحزّباتٍ وأوهامٍ كهذه؛ ولكنّه رأى أن لا مناص من قيام نزاعٍ وتناقضٍ بين الفلسفة والفئات التي بأيديها السّلطة. وتصبح النّتيجة النّضال ضدّ الأنانيّة والتّحيّز، والأصنام والأوهام، نضالاً موجّهاً مباشرةً ضدّ السّلطة والكنيسة اللّتين تدافعان عن تلك الأنانيّة وذلك التّحيّز.

واعتقد "**هيلفتيوس**" بأنّ النّضال ضدّ التّحيّز سيؤدّي أخيراً إلى تأسيس نظامٍ اجتماعيٍّ قائمٍ على قواعد العقل والمنطق، ويستند هذا الاعتقاد على وجهة النّظر القائلة: إنّ المعرفة الحقيقيّة المجرّدة عن كلّ تحيّزٍ وتشيّعٍ، هي التي ستكشف عن وحدة المصالح بين الفرد والجماعة. ولهذا صارت المعرفة مرادفةً للفضيلة، وصار الخطأ والأنانيّة مرادفين للرّذيلة، **ولا يمكن الحصول على**

**المعرفة والفضيلة إلّا إذا كانت حرّيّة التّفكير مضمونةً، أمّا أولئك الذين يضيّقون الخناق على حرّيّة التّفكير، فلهم مصالح تتطلّب استمرار الخطأ والأنانيّة والتّعصّب وتركيز الأوهام؛ لأنّ المعرفة تكشف بكلّ وضوح، أنّهم يدافعون عن امتيازاتهم غير المشروعة، وتكشف كذلك عن حقيقة أنّ التّخلّص أو القضاء على هذه الامتيازات، سيؤدّي إلى تأسيس نظامٍ اجتماعيٍّ قائمٍ على العقل والمنطق.**

بناءً على وجهة النّظر هذه، سيتكّون المجتمع الجيّد، أو الصّالح من بحث الإنسان عن المعرفة، ولكنْ تحُول دون ذلك قوى الكنيسة والسّلطة، إذ يشعر المتعصّبون دينيّاً، بأنّ من واجبهم أن يضعوا على عيون النّاس غشاوةً، يبقونهم سذّجاً تائهين في دياجير الظّلام!. ويثير السّياسيّون أحاسيس النّاس، وتعصّبهم وتحيّزهم للقضاء على كلّ حركةٍ تريد أن تتحدّى سلطتهم. ومن المسلّم به أنّ الإنتاج الفكريّ لفئةٍ أو طبقةٍ اجتماعيّةٍ ما، يتّصل اتّصالاً وثيقاً بمركزها الاجتماعيّ، لأنّها تناضل من أجل المحافظة على نفوذها وسيطرتها السّياسيّة، والاقتصاديّة، والاجتماعيّة، وهي تستفيد وتستغّل . بقصدٍ أو من دون قصدٍ أنواعاً من الأوهام والخرافات في سبيل المحافظة والدّفاع عن مصالحها! وبكلمةٍ مختصَرةٍ: ترتبط المعرفة الاجتماعيّة بالموضوعات الاجتماعيّة، لأنّها وسائل تكيّف الفئةَ أو الطّبقةَ لظروف الكفاح من أجل السّيادة.

فقولنا بوجود الصّلة بين الطّبقة النّبيلة، والآراء المحافظة والمدافعة عن الحرّية، يستوجب القول: إنّ الطّبقة النّبيلة ترغب في الاستمرار للتّمتّع بالامتيازات التي حصلت عليها بطرائقَ شتّى، وتحاول أن تبرّر قيامها بمختلف الحجج والبراهين والأوهام والأساطير.

قلنا: إنّنا نعيش في حالةٍ شاذّةٍ يصنف النّاس فيها بعضهم بعضاً بالنّسبة للأوهام، والخرافات والأساطير التي لديهم، فيقسمون الهيئة الاجتماعيّة إلى مقاطعَ متنافرةٍ ومتضاربةٍ، يحتلّ كلّ مقطعٍ موضعاً معيّناً من المجتمع، فيغلق كلّ أبواب الحياة، ويوصد كلّ نافذةٍ في وجود المقاطع المعارضة، أو المتناقضة التي تحمل أوهاماً وخرافات وأساطير مختلفةً.

**يقول الفلاسفة: إنّ كلّ رذيلةٍ هي خطأ يرتكبه العقل، فالجريمة أخت التّحيّز والتّعصّب، والفضيلة أخت الحقيقة. ولكن ما هي مقاييس الحقيقة؟**

الجواب: تعتمد المقاييس على التّناقض والجدل وحرّيّة التّفكير والمناقشة. فكأنّ الله أراد أن يجعل الحقيقة مكافأةً للمناقشة واختلاف الرّأي. ولقد ظنّ الفلاسفة والكتّابُ، وجود نظامٍ للمجتمع قابلٍ للكشف، قائمٍ على مبادئ الفضيلة؛ وقد كان من المنتظر أن تساعدنا المعرفة في الكشف عن القوانين الخُلُقيّة للمجتمع، كما تكشف المعرفةَ الطّبيعيّةَ عن قوانين الله. وكانت المعرفة مصدراً للقوّة لأنّها توجّه النّقد ضدّ السّلطة والكنيسة. ولمّا كانت المعرفة السّلاح الماضي في القضاء على الأصنام والأوهام، والخرافات

والأساطير، فإنّ الفئات الاجتماعيّة التي وقفت تدافع عن الأنانيّة والتّحيّز، وحالت دون تكوين نظام خُلُقيٍّ للمجتمع... كانت تخشى هذا السّلاح.

يظهر من منطوق وجهة النّظر هذه أنّ الأنانيّة لم يكن نتيجةً لانحراف العقل وضلاله، فقد تعمل الفئات الاجتماعيّة المختلفة على تقويمه وإشاعته، للمحافظة على مراكزها في المجتمع؛ وقد ظنّ بعضٌ من الفلاسفة أمثال "هيلفتيوس" و"هولباخ" أنّ تحليل الأنانيّة والتّحيّز ومحاولة تفسيره للتّخلص منهما، سيزيد من السّعادة والمعرفة البشريّة. **وأكّد "هيلفتوس" على أنّ المجتمع هو مصدر التّحيّز والأنانيّة، فهو الذي يصمّم السّلوك، ويوجّه الشّعور، لأنّ كلّ فردٍ يحاول أن يكيّف نفسه مع محيطه ليتجنّب الألم، ويحصل على المتعة والسّرور.** ولمّا كان لكلّ مجتمعٍ أحكامٌ خلقيّةٌ خاصّةٌ به، تعتمد على مصالح أعضائه، وعلى الفئة التي بيديها السّلطة... فإنّ أنموذجات العقل، ستختلف باختلاف الظّروف الاجتماعيّة التي تثير تلك الأحكام، فإذا سيطر رجال الكهنوت على السّلطة سادت على الأذهان الخرافات والأساطير.

وإذا كانت الفلسفة تتوخّى القضاء على التّحيّز والأنانيّة، فإنّها ستضع نفسها في موضعٍ حرجٍ، لأنّها تعلن بذلك مقاومتها للسّلطة والكنيسة معاً! **وخير مثالٍ على ذلك انتماء "نابليون" إلى عضويّة المعهد الوطنيّ سنة ١٧٩٧ إذ عدّه فلاسفة المعهد واحداً منهم، بصفته جنرالاً ومهندساً وفيلسوفاً، يستطيع أن يحقّق جمهوريّة أحلامهم، لهذا وقف الفلاسفة موقفاً إيجابياً في مساعدة "نابليون" في الانقلاب الذي قام به، ولكن في سنة ١٨٠٣ انقلب "نابليون" عليهم فحرّم**

**تدريس علم السّياسة والأخلاق في المعهد، ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتّى اعترف بأهمّيّة التّعصّب الدّينيّ للمحافظة على الدّولة، ولهذا اضطر الفلاسفة أن يغيّروا موقفهم الإيجابيّ، وأن يقفوا في وجه مشروعات نابليون الاستعماريّة ويبدّدوا الأوهام التي تروّجها الكنيسة.**

اعتقد فلاسفة القرن الثّامن عشر بإمكانيّة إصلاح وتحسين الإنسان والمجتمع عن طريق التّربيّة، واهتمّوا اهتماماً كبيراً بالإصلاحات التّربويّة على أمل أن يتخلّص العقل من الأوهام والتّحيّزات، وظنّ الفلاسفة بقدرة العقل على تحقيق الكمال، فإذا كان البحث عن المعرفة ممنوعاً بسبب طبيعة الإنسان، أو بسبب وجود الإنسان الاجتماعيّ، فلابدّ من أن يسيطر التّشاؤم على أذهان النّاس ووجهات نظرهم؛ ولكن كيف يستطيع الفرد أن يستفيد من استعمال المعرفة في المجتمع، ما دامت علاقات الإنسان مع أخيه الإنسان قائمةً على أساس التّحيّز، والأنانيّة، والنّفاق، ومصدراً للخطأ والوهم؟ وكيف نأمل من التّربية أن تخلّص الإنسان من وهمه، وتحيّزه، وخرافته، إذا كان عضواً يعمل ضمن فئةٍ اجتماعيّة؟ **وإذا كان كلّ عملٍ من أعماله انعكاساً لأنماطٍ عاطفيّةٍ، تكوّنت خلال حياته الطّويلة، فقد تلاشى بذلك إيمان النّاس بالعقل وبقدرته على تنظيم العلاقات الاجتماعيّة، وعلى التّخلص من الوهم والتّحيّز، وانهارت التّربية كوسيلةٍ فعّالةٍ،** لأنّها قائمةٌ على أساس التّعصّب الأعمى لبعضٍ من المذاهب الفلسفيّة التي ما هي إلّا تبريراتٌ ومسوّغاتٌ لبعضٍ من النّظم السّياسيّة التي تدعم السّلطة.

وعلى كل حالٍ فإن كان مجال الأنانيّة والوهم والتّحيّز واسعَ المدى، عميقَ الأثر، وكثيرَ الاتّصال بعيش النّاس، وقوتهم، ومراكزهم...فسوف يكون من الصّعوبة التّخلّص منه، وإذا كان النّاس محافظين، شديدي التّمسّك بالتّقاليد والأعراف، وبالقيم الاجتماعيّة... فإنّ من الصّعوبة كذلك أن يتقبّلوا نوعاً من المعرفة التي تتباين وتختلف مع ما لديهم من تقاليدَ وقيمٍ، ومن المستحيل أن تنشط المعرفة، وتنموَ، وتترعرع في مجتمعٍ أنانيٍّ ومتحيّزٍ، يقدّس الأصنام، ويتعصّب للأوهام والخرافات، ويؤمن بالأساطير، ويَسخَرُ من العلم، ويحتقر رجال الفكر، ويهاب انتشار العلم، فيقلّص مجال حرّيّة التّفكير، حتّى لا تصبح المعرفة قوّةً بيد النّاس تقضي على الأصنام، وما يدور حولها من الأوهام، والأساطير، والخرافات، والنّفاق، والسّلوك الحَربائيّ.

قلنا: إنّ أوهامَ الإنسان وخرافاتِه وأصنامَه، تتغلغل في طبيعة طبيعته، وتتكوّن على أساس الصّلة الاجتماعيّة، وعلى ما تتركه من أثرٍ، فطبيعة الإنسان نسيجٌ من الصّلات والعلائق الاجتماعيّة، حيث تعتمد الصّلة الاجتماعيّة على عاملين، هما:

١- الوعي.
٢- المكانة التي يشغلها الإنسان في المجتمع.

إذ يضيف المجتمع على كلّ مكانةٍ مجموعةً من القيم، ومن المفروض بالفرد الذي يشغل مكانةً معيّنةً أن يسلك سلوكاً خاصّاً، ينسجم مع ما تتطلّبه

المكانة من التزامات، لأنّها تمثّل رأي الفئة ومفهوماتها، ولأنّ الفرد ينال من ورائها بعضاً من الامتيازات. ونتيجةً لاختلاف المكانات، وما تمنحه من امتيازاتٍ تتكوّن المسافات والأبعاد النّفسيّة والاجتماعيّة بين أفراد المجتمع الواحد، فمكانة رجل الدّين تختلف عن الشّرطيّ، ومكانة القاضي تختلف عن العامل، ومن الضّروريّ الإشارة إلى أنّ الإنسان لا يُولد في هذا العالم ولديه الوعي الذّاتيّ، لأنّ الوعي ينشأ ويترعرع وينمو من خبرات الإنسان نفسه، وينشأ الوعي من تصوّرات الآخرين وأفكارهم وتخيّلاتهم، حتّى ينظر الفرد إلى نفسه بعيون الآخرين. فإذا بدّل الإنسان المكانة التي يشغلها، فإنّ وعيه بذاته يتغيّر نتيجةً لذلك! فلو فرضنا أنّ قاضياً قد عُيّن مديراً للشّرطة فإنّ مفهوماتِه ووعيَه يتبدّلان، ووجهة نظره في الحياة تتغيّر، وكذا الحال في كلّ شخصٍ يبدّل مكانته الاجتماعيّة.

إنّ الأصنام رموزٌ خارجيّةٌ تقدّسها الجماعة، فمن الواجب على كلّ فردٍ أن يعدّها جزءاً من تكوين شخصيّته، لأنّها تقوم بوظيفة معيّنةٍ تنظّم وتسيطر على سلوكه وتفكيره، ويظهر لنا بكلّ وضوحٍ أنّ أعضاء المجتمع خاضعون لمجموعةٍ من الأصنام التي تتمتّع بالسّيطرة والقدسيّة، وأنّها ضروريّة لجعل الكائن اجتماعياً ذا أوهامٍ وخرافاتٍ وأساطيرَ وتحيّزاتٍ.

# الفصل الثالث

# الأسس الوجوديّة للأصنام

عندما يحتل الصّنم مكانةً ساميةً في ضمائر النّاس، تُشاع عنه الأوهام والخرافات، وتحيط به سدنةٌ، وتحجّ إليه النّاسُ، وتقدّم النّذور والأضاحي، وتوقد البُخُور، وتقرأ التّعويذات، وتنشر عنه المعلوماتِ المشوّهةَ والمزيّفة التي تخفي مصالح السّدنة ومن يقف وراء الأصنام، فلا يمكن تحليل وتفسير هذه الظّاهرة إلّا بالرّجوع إلى الأسس الوجوديّة التي يستند إليها الصّنم والسّدنة والأتباع.

يتكوّن الصّنم من تبادل العلاقات الاجتماعيّة، ومن ضرورة الكفاح لأجل البقاء، وقد تنهار سيطرة بعضٍ من الأصنام القديمة بظهور أصنامٍ جديدةٍ، فمن الخطأ القول: إنّ الأصنام الجديدة قد قضت على الأصنام القديمة، ولكنّ الحالة العامّة قد تغيّرت، ومهّدت السّبيل لظهور الأصنام الجديدة، **فلا يمكن أن يكون الأمر مجرّد تناطحٍ وتصادمٍ بين الأصنام، فالواقع هو أنّ الأصنام القديمة، لا تنقطع عن الاستمرار في السّلطة، والنّفوذ، والقدسيّة إلّا إذا تغيّرت الظّروف والأحوال، وتبدّلت قيم النّاس، وصحبها تبدّلٌ وتغيّرٌ في مواقف النّاس وآرائهم**، وبمعنىً آخر، إنّ للأصنام أساساً في الواقع الاجتماعيّ، فلا يمكن إذاً القضاء على الأصنام إلّا بالتّبديل العمليّ للحالة العامّة، أو

الظّروف والأحوال، فإذا ما تغيّرت انهارت الأصنام لوحدها، وأصبحت أثراً بعد عينٍ، وبمعنىً آخر زحزحةُ الواقع الاجتماعيّ من تحتها.

فإذا كان التّخلص من الأساس الوجوديّ الذي ترتكز عليه الأصنام، السّبب في وجود سِلميّةٍ وتطوّريّةٍ، أي من دون اللّجوء إلى نزاعٍ عنيفٍ، فإنّ القضاء على الفِكَرِ والآراء والأوهام التي صنعها ونَحَتَها فريقٌ من أدعياء الثّقافة، يكون هيّناً وسهلاً، ولكنّ التّاريخ علّمنا، أنّه إذا استطاع الصّنم أن يمدّ جذوره في الواقع الاجتماعيّ، وأن تتغلغل قدسيّته في أعماق القلوب، وأن تتدخّل (سلطته) في حلّ الخلافات والمنازعات، واستطاع أن يؤسّس إطاراً ثقافيّاً، لا يسهل الخروج عليه، أو الانحراف عنه، وأنّه يميل إلى الاستمرار النّسبيّ، ويستخدم القوّة والعنف في الدّفاع عن نفسه.

ولمّا كانت التّحوّلات الاجتماعيّة بطيئةً وتطوّريّةً وجزئيّةً، فإنّها تحتاج إلى وقتٍ طويلٍ نسبيّاً لزعزعة ثقة النّاس بالصّنم، خاصّةً وأنّ موجة التّبدل تختلف في شدّتها وعمقها من محلٍّ إلى آخرَ، ومن زمن إلى آخر، فإن كان النّاس يترقّبون انهيار الصّنم، وظهورَ صنمٍ آخر، سهُل عليهم أن ينقلوا ولاءَهم وإخلاصهم من دون خشيةٍ أو رهبةٍ، أمّا إذا بقيت الظّروف واستمرّت، وكانت الخرافات والأوهام مطابقةً لمقتضيات الزّمان والمكان، فإنّها من دون شكٍّ تؤثّر في الحصول على المعرفة، وتعمل على تفريق الصّفوف، واستغلال بعضه مللب عض الآخر؛ **ومن الملحوظ أن الانهيار يكون سريعاً حينما تعمّ موجةُ الشّكّ في مَقْدِرَةِ الصّنم على تحقيق مطامح وآمال الأتباع، وينشط التّذمّر،**

**والشّعب ضدّه، وبذلك تتساند الظّروف الواقعيّة الوجوديّة مع آراء النّاس ومواقفهم وتتفاعل معها.**

ومن المألوف كذلك أنّ تطابق أوهام الصّنم وخرافاته هي الأسس الوجوديّة، وإلّا لما قام الصّنم، وإن لم يكن هنالك تطابقٌ فمن المنتظَر أن يحلّ القلق والاضطراب في الحالة الاجتماعيّة. والواقع هو أنّ الأسس الوجوديّة لا تقدر على ممارسة وسيلةٍ واحدةٍ للضّغط والزّجر لأنّ الأفراد يتعلّمون كيف ينحرفون عنها ويشطّون، وفي اللّحظة التي يتعطّل فيها الصّنم عن إتيان الخوارق والمعجزات، فإنّ النّاس يأخذون في التّململ والقلق حتّى يتوجّهوا إلى صنمٍ جديدٍ.

يَعدّ العالمُ الاجتماعيُّ الفرنسيُّ **"أميل دوركهايم"** التّصوّراتِ الجماعيّةَ والوجدانَ الجماعيَّ للأوهام والأساطير والخرافات والفِكَر والزّواجر والنّواهي كافّةً. وعدّها مجموعةً من العقائد، والمشاعر المشترَكَة التي تتميّز بحياةٍ خاصّةٍ، إذ يوجد خارج وجدان الفرد، ويتّصف بقوّةٍ إلزاميّةٍ تضطرّ الفرد لاتّباع ضروبٍ معيّنةٍ من السّلوك والتّفكير والشّعور؛ ولأجل أن ينال الفرد كياناً ضمن الجماعة، فيجب أن يتمسّك بالولاء، والإخلاص للقيم والمقاييس التي يرمز لها الوجدان الجماعيّ. فإن كان الوهم أو الخرافة أو الأسطورة من صنع الجميع، أي نتيجةً للعمليّات الجماعيّة، فإنّ من الضّروريّ أن يتّصف ذلك الوهم بقوّةٍ إلزاميّةٍ، وبضغطٍ يعبّر عن تدخّل الجماعة في توجيه الأفراد، وتصبح الأوهام والخرافات والأساطير تصوّراتٍ جماعيّةً، لأنّ الوهم أو الأسطورة أو

الخرافة، تلخّص تجربةً اجتماعيّةً تتجاوز نطاق التّجربة أو الخبرة الشّخصيّة من الوجهتين الزّمانيّة والمكانيّة، وإنّنا نستخدم الخرافة أو الأسطورة من دون أن تكون التّجربة ماثلةً أمام عيوننا، وتحت نطاق حواسّنا الأخرى.

تكوّن أوهامُ المجتمع الابتدائيّ وخرافاته صورةً واقعيّةً عن النّظام الاجتماعيّ الخاصّ بالقبيلة، تلك الوحدة الاجتماعيّة التي تنقسم إلى أفخاذٍ وبطونٍ وعوائلَ، إذ ينتمي إليها الأفراد والحقائق الاجتماعيّة والطّبيعيّة الأخرى كالجهات، والفصول، والنّباتات والحيوانات؛ وبذلك لا تشتمل العشيرة على الأفراد فحسب، وإنّما الكون بأسره. ويتضح من ذلك أنّ الأوهام والخرافات صدىً للحدود الاجتماعيّة التي وُجدت قبلها، فالوحدة الاجتماعيّة أساسٌ للوحدة الصّنميّة والخرافيّة والوهميّة، وتكون الزّواجر والمحرّمات الطّقوسيّة كافّةً وليدةَ المجتمع.

**وما دام كيان المجتمع وبقاؤه يتطلّبان وجود بعضٍ من الأوهام والأساطير حول تقديس بعضٍ من الموضوعات، واحترامها، فمن الضّروريّ أن تؤثّر في سلوك الفرد وتفكيره.** فالموضوعات التي تتميّز بإلزامٍ خُلَقيّ تعكس الأساس الوجوديّ، كتقديس بعضٍ من الآبار والعيون بالنّسبة للبدويّ الذي يرحل وراء الكلأ والعشب، واحترام بعضٍ من الأشجار والحيوانات؛ والواقع هو أنّ مصدر القدسيّة والاحترام، ليس كامناً ومستقِرّاً في الموضوعات ذاتها، فالشّجرة ليست مقدّسةً بطبيعتها، والبقرة ليست محترَمَةً بطبيعتها، وإنّما أُضيفت القدسيّة لها من قِبَل التّصوّرات الجماعيّة.

**قد يكون الموضوع المقدّس رمزاً جماعياً، مثال ذلك حمل الصّلبان الذّهبيّة، والأهلّة على صدور السّيدات وفي أعناقهن، واحترام العَلَم. ويصبح جوهر هذا الرّمز مهمّاً من حيث قيمتُه ومعناه، وليس هو من صلب الموضوع الذي صار رمزاً، فالعَلَم قطعةٌ من قماشٍ وُضعت على عمودٍ من خشبٍ فصارت مقدّسةً لأنّها ترمز إلى مجموعةٍ من القيم التي تقدّسها الجماعة وتحترمها،** ويرمز الصّليب والهلال إلى مشاعرَ دينيّةٍ خاصّةٍ، ولمّا كان الموضوع رمزاً فلا يمكن أن يكون سبباً أو علّةً تتّصل بمعناه، وعندما يتحوّل الموضوع إلى رمزٍ تصبح العلاقة تقليديّةً.

لا تملك الموضوعات المقدّسة خصائص تكون مقدّسةً في أصلها وطبيعتها، وإنّما ينشأ تقديسها واحترامها من العلاقة الرّمزيّة بين النّاس وتلك الموضوعات، مثال ذلك الأصنام المصنوعة من التّمر التي كانت تقدّسها بعضٌ من القبائل العربيّة في الجاهليّة، فإذا جاعت أكَلَتْها، فهي مقدّسةٌ في وقت الشّبع والطّمأنينةِ، وطعامٌ يأكله النّاس وقت الجوع والحاجة.

نخلص من هذا العرض الموجز إلى أنّ مصادر التّحيّز والوهم ترجع في الحقيقة إلى الأسس الوجوديّة للحياة، أي المعاني التي تضيفها الجماعة إلى الموضوعات، وليس التّقديس والاحترام عنصرين أساسيّين في صلب الموضوعات ذاتها، ويكون المعنى المضاف سبباً في خلق التّحيّز والوهم نحو تلك الموضوعات، وبخاصّةٍ عندما تدرّب الجماعة أفرادها وتلقّنهم احترام أصنامها، والتّلذذ بحفظ أساطيرها وخرافاتها.

**يصنع المجتمعُ الأوهامَ والأصنامَ والأساطيرَ**، وينقلها عن طريقِ التّربية والتّعلّم من جيلٍ إلى جيلٍ، إذ يتعلّم الطّفل الفرنسيّ من أمّه كراهية الألمانيّ واحتقارَه، وتعلّم الأمّ الألمانيّة ضرورة الانتقام من الفرنسيّ، وكذا الحال في التّعصب بين القبائل والأمم، والأبيض والأسود! فالهنديّ يتعصّب ضدّ الأوربيّ الأبيض، والمراكشيّ ضد الفرنسيّ، وذلك لأسبابٍ تتعلّق بظروف الحياة المادّيّة. الأسباب الوجوديّة ولا يمكن إزالة هذا الفوارق والأنانيّات والتّحيّزات والأوهام، إلّا بزوال الظّروف والأحوال الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة والرّوحيّة التي كانت سبباً في ظهورها.

كان لكلّ عائلةٍ في الزّمن القديم (صنمٌ) خاصٌّ بها، توقد حوله النّار، وتشعل البُخُور، وتقدّم له الأضحيات والقرابين والنّذور، وتتوسّل إليه في حلّ مشكلاتها النّفسيّة والاجتماعيّة والطّبيعيّة. وعندما تألّفت العوائل، وكُوّنت القبيلة، واستقرّت في القرية، صار لكلّ قريةٍ صنمٌ مشتَرَكٌ يرمز للتّضامن والتّعاون فيما بين الأفخاذ والبطون والعوائل، تدور حوله الأساطير والأوهام والخرافات؛ **وإذا أرادت إحدى القبائل أن تُخضِعَ قبيلةً أخرى وتُدخِلَها في طاعتها تأسر صنمها، لأنّ الأسْر يرمز إلى خضوعها واستسلامها، وأصبح الصّنم رمزاً لوجود القبيلة، وقد تعمل القبيلة كلّ ما في وسعها لاسترداد عزّتها، وكرامتها باسترداد صنمها، وعندما يتمّ لها ذلك تقيم الاحتفالاتِ والأعيادَ بعودته، وكانت (صحّة) كلّ أسطورةٍ أو خرافةٍ تُقاس بما يدور حول الصّنم من خرافات وأوهامٍ.**

كان النّاس يقصدون من تشييد الأصنام في البدء السّعادة الرّوحيّة، ولكن سرعان ما يبذلونها بالرّفاه المادّيّ، وخير ما يمثّل ذلك أصنام التّمر، ويصنع المجتمع المفهومات المشوّهة عن العالم تحت ظروفٍ معيّنةٍ، أمّا الأسباب الدّاعية لذلك، فهي ظروف العالم ذاته التي تعمل على التّشويه، والتّزييف، والاعتقاد بالسّحر، والشّعوذة، وبقوى ما وراء الطّبيعة، التي تمنع النّاس من أن يعملوا على تغيير العالم الذي يعيشون فيه. فإذا تحسّنت ظروف النّاس المادّيّة، وشعروا بالطّمأنينة، يقلّ اعتمادهم على الأصنام في الحصول على الرّاحة النّفسيّة. فقد ربط بعضهم بين تردّي الأحوال المعاشيّة، وضيق ذات اليد، وبين الاعتقاد بالخرافات، والأوهام، والأصنام؛ فبموجب وجهة النّظر هذه لا يمكن التّخلص من الأصنام والأوهام إلّا بتحسين الظّروف المعاشيّة للأفراد، لأنّهم لا يحتاجون بعد إلى الطّمأنينة الوهميّة الخياليّة المبنيّة على عبادة الأصنام وتقديسها، أي إذا كانت البطون جائعةً، والجسم عارياً، احتاج الإنسان إلى الأوهام، والأخيلة التي تبرّر وضعاً من دون طعامٍ ومن دون لباسٍ، أو تعد الإنسان بإمكانيّة التّلذّذ بالطّعام واللّباس في الدّنيا والآخرة؛ فإذا تحسّنت ظروفه المعاشيّة فسوف يتحرّر من أوهامه وخرافاته، وصار قادراً على تلبية حاجاته، ورغائبه، بحيث لا يحتاج إلى خلق الأوهام والأساطير لطمأنينته النّفسيّة، وتنبثق الأوهام من سوء الأحوال المعاشيّة، وليس من العواطف، والهواجس، والأحاسيس، كما قال "**فرويد**" ولكن في كليهما يمتزج التّحيّز والأنانيّة مع المصلحة الشّخصيّة، وفي انتماء الأفراد إلى الفئات الاجتماعيّة المختلفة، ولا يمكن معرفة التّحيّز إلّا بصلته بعمل الفرد، لأنّ عمله يشير إلى

نوعِ وهيئةِ ومضمونِ علاقته مع الآخرين، هل هي قائمةٌ على أسس التّنازع أو التّنافس أو التّوافق؟ لأنّ قيامنا بذلك سيكشف عن طبيعة الفئة التي ينتمي إليها الفرد.

**إنّنا لا نحكم على الفِكَرِ والأوهام والخرافات التي يعتنقها الفرد ونكتفي بذلك، ولكن بقرينة من هم أصدقاؤه وحلفاؤه وأعداؤه؟ وكيف تستطيع تلك الفِكَرُ أن تخدم مصالحه ومصالحهم؟ وبمعنىً آخر، لا نفكّر بالفرد كذرّةٍ منعزلةٍ ومستقلّةٍ، ولكن ننظر إليه كعضوٍ في فئةٍ اجتماعيّةٍ،** كالحزب السّياسيّ، أو النّادي، ولهذا تصبح أوهامه وخرافاته أقنعةً تستر مصالح الفئة التي ينتمي إليها، ويخدم مصالحها. ولا يمكن أن يكون لأوهامه معنىً بالنّسبة إلينا، إلّا إذا عرفنا طبيعة تلك الفئة ووجهة نظرها؛ فإن كانت أوهامه وخرافاته وأفكاره تتّفق مع مصالح أفرادٍ آخرين، فلابدّ من أن ينتقل إليه وَهْمُ الفئة ذاتها، ويكون تفكير الفرد وعمله وخرافاته وأوهامه وتحيّزه وتعصّبه، بناءً على وجهة النّظر هذه، وانعكاساً لتأثيرات الفئة، وتصبح الفئة أساساً لتنوّع أشكال المعرفة وتوجيهها، وليست نتيجةً للإلهام والوحي.

قلنا: إنّ معيشة الأفراد في المجتمع اضطرتهم إلى قبول بعضٍ من أنواع التّحيّز والتّعصب، كعربونٍ لقبولهم أعضاءً في ذلك المجتمع، ولكنّ هذا القبول لم يكن شعوريّاً أو مقصوداً، فهل من سبيلٍ يستطيع الأفراد بواسطته أن يتخلّصوا من كلّ أنواع التّحيّز.

يقول أحد علماء الاجتماع، وهو "**كارل ما نهايم**" بوجود الطّرائق التّالية:

**١- أن يترك الفرد ويهجر مركزه الاجتماعيّ بحركةٍ رأسيّةٍ في السّلّم الاجتماعيّ إمّا إلى أعلى وإمّا إلى أسفل.**

**٢- أن تتغيّر أسس الوجود التي يقوم عليها المجتمع بأجمعه، وبخاصّةٍ ما تعلّق منها بالقواعد التّقليديّة والمؤسّسات.**

**٣- أن تنبثق إلى الوجود وجهاتُ نظرٍ متعدّدةٌ تتعارض بعضها مع بعضٍ في تفسيرها المشكلاتِ التي تعترض سبل الحياة الفرديّة والجماعيّة.**

ولم يكن "مانهايم" موفّقاً في طرائقه الثّلاثة، فإذا ما غيّر الفرد مركزه الاجتماعيّ، فإنّه يبدّل نوعاً من التّحيّز والتّعصّب، ليتحيّز ويتعصّب لنوعٍ آخر، وإذا ما تغيّرت الأسس الوجوديّة لبعضٍ من أنواع الأوهام والأصنام، فستحلّ محلّها أسسٌ وجوديّةٌ أخرى، تدعو إلى ظهور أوهامٍ وأصنامٍ جديدةٍ تتّفق معها! أمّا وجود وجهات نظرٍ متعدّدةٍ فلا يدعو إلّا إلى انتصار وسيادة خرافةٍ أو أسطورةِ الغالب المنتصر، الذي يتمتّع بالسّلطة والقدسيّة.

يتكوّن الصّنم من التّصوّرات التي يعتنقها الأفراد نتيجةً للعلاقات والصّلات المتبادَلة بينهم في حياتهم الجماعيّة بأوجهها المختلفة، الاقتصاديّة والاجتماعيّة والدّينيّة والسّياسيّة؛ فوجود الصّنم مرتبطٌ بنوع الحياة الجماعيّة، أي بأسسها الوجوديّة، فقد يؤكّد بعضهم طريقة الإنتاج في الحياة المادّيّة، **ويعدّ الوجود المادّيّ سبباً في ظهور الأصنام والأوهام والخرافات، وأنّها تؤثّر في**

سلوك الإنسان وطرائق عمله، فإذا تغيّرت الأسس الوجوديّة، أو القواعد الاجتماعيّة التي تستقرّ الأصنام عليها، فإنّها ستحدث تغييراً كبيراً في الأصنام وفي نوعيّة السّدنة والأتباع، وفي تكوين الأوهام وشكلها ومضامينها واتّجاهاتها؛ فلا يمكن أن تتكوّن الأوهام والخرافات في فراغٍ عقليٍّ، ولا يمكن أن تأتي إلى عقول الأفراد عبثاً، أو صدفةً.

**لنأخذ مثالاً من النّظريّة السّياسيّة عن مبدأ الأحرار، وما هي الظّروف والأسس الوجوديّة التي أحاطت بظهوره، وكيف تغيّرت الأسس، فكانت سبباً في انحلاله.**

كانت الحالة تناسب التّفكير القائل بالفرديّة وبالمساواة الرّوحيّة واحترام الشّخصيّة، بحيث أنّها أضافت إلى البشريّة وظيفةً مبدعةً وخالقةً، أُنكرت عليها طوال العصور الوسطى، فلم تكن آنذاك دولةٌ بالمعنى الحديث، ولم يفرّق النّاس بين الدّولة والمجتمع، وفي غضون تلك الحالة تلاشى النّظام الإقطاعيّ، وتكوّن النّظام الخاصّ بالضّرائب، وتأسّست الجيوش الدّائمة، ولم يعد النّبلاء السّادةَ المطلقين، وساد الاعتقاد بعقم التّقاليد والأعراف الاجتماعيّة المتبلورة التي تعارض هذه الفِكَر، خاصّةً وأنّ الطّبقة الوسطى النّامية المتصاعدة، اتّفقت مع وجهة النّظر الدّاعية إلى تقوية كيان الدّولة، ولكن عندما تقلّدت الطّبقة الجديدة مقاليد الحكم، أهملت الدّفاع عن المبادئ التي دعت إليها مسبّقاً، وذلك لتبدّل الأسس الوجوديّة.

**ومثال آخر على كيفيّة تأثير الأسس الوجوديّة في ظهور الفِكَر والآراء.**

لقد مرّ المجتمع بحالةٍ كانت الفكرة القوميّة مقبولةً اجتماعيّاً وسياسيّاً، وكان النّاس منهمكين في أوهام الرّسّ، ونقاوة الدّم والعنصريّة، وشجرة النّسب، والانتماء إلى القبائل البدويّة التي تعيش في الصّحراء، واضطرار بعضهم إلى التّحالف، وطلب الولاء من قبيلةٍ معيّنةٍ؛ واتّخذ المؤرّخون والكتّاب من العامل الرّسيّ مفتاحاً لتفسير الظّاهرات التّاريخيّة والاجتماعيّة، ففسّروا صراع الأمم والفئات والأفراد تفسيراً رسّيّاً عنصريّاً، حتّى وضع بعضٌ من المتحمّسين للفكرة بعضاً من المبادئ، وقال: هذه مبادئنا، فمن آمن بها فهو منّا. وكان للقوميّة مجموعةٌ من الزّعماء والأبطال الذين تصفّق لهم الجماهير، وكانت المهرجانات والاحتفالات تُقام في أيّام الأمجاد القوميّة، ويرتدي فيها الطّلاب والشّباب الثّياب القوميّة، ويقرؤون الأناشيد والأهازيج، ولكن سرعان ما تبدّلت الأسس الوجوديّة، واتُّهِمَت القوميّة بالتّعصّب العنصريّ وبالرّوح العدائيّة (الشّوفينيّة) فامتلأت السّجون والمعتقلات بهم، وخشي القوميّ من أن يجهر برأيه، وانفضّ الشّباب من زعماء الأمس، وبدّل الكثيرون ولاءاتهم، واعتنقوا مجموعةً من الأوهام والفِكَر التي كانت تدعمها أسسٌ وجوديّةٌ غيرُ مستقرّةٍ.

**ولعلّ نظام الطّوائف في الهند يقدّم مثالاً رائعاً لموضوع بحثنا.** حيث يوجد في المجتمع الهنديّ مستوياتٌ ومراتبُ وطوائفُ متباينةٌ في الدّرجات والامتيازات، وغير متكافئةٍ في الحقوق، ولا تعني الطّائفة في الهند احتكاراً

للمهنة فقط، وإنّما التّمتّع ببعضٍ من الامتيازات! فالهنديّ محكومٌ عليه منذ ولادته بالقيام ببعضٍ من الواجبات على شكل خدماتٍ وضرائبَ يدفعها لسيّده من الطّائفة العليا، ويرتدي السّيّد الجلباب الأحمر والوشاح الأصفر المُحَرّمَيْنِ على غيره من الهنود؛ وتكون مكانة كلّ فردٍ مقرّرةً منذ الولادة بمكانة والده والطّائفة التي ينتمي إليها، ويوجد بين كلّ طائفةٍ وأخرى حدٌّ يكاد يكون تامّاً؛ فلا يجوز الأكل أو الشّرب أو الزّواج بينها. وتتّصف الرّوح الطّائفيّة بالنّفرة، والتّباعد، والتّباغض، والتّحاسد، وتقوم على مجموعةٍ من الخرافات والأوهام، التي تختصّ بالمهنة والطّقوس الدّينيّة والرّسّ وغيرها.

ولا يقتصر الأمر على الهند، ففي مجتمعنا محاولاتٌ انقساميّةٌ تعمل على تمزيق الشّمل، وتفريق وحدة الصّفوف بدعاوى غير خاضعةٍ للعلم والمنطق، تلك المحاولات التي قد تتميّز بالخصائص المادّيّة والمعنويّة.

**لكلّ مهنةٍ في الهند طائفةٌ معيّنةٌ تسهر عليها وتقوم بتدريب أطفالها حتّى تصبح المهنة وراثيّةً، ويشير تعدّد الطّوائف إلى تعقّد المجتمع وتقدُّمِه من الوجهة المهنيّة، وتقسيم العمل**؛ فمن الممكن التّمييز بين الطّوائف الهنديّة المختلفة للصّيّادين، بحسب ما ترويه الأساطير البوذيّة بالنّسبة للأدوات والآلات التي تستعملها كلّ طائفةٍ، أو بالنّسبة لنوع السّمك الذي تصطاده الطائفة! ففي الهند طوائفُ بائسةٌ وفقيرة جدّاً، واجبها أن تُعَدَّ الأرض وتزرعها، ثمّ تقدّم الأرض والنّاتج إلى طائفةٍ أخرى، وإنّ من حقّ أسيادها أن تضربها بالسّياط، وعليها أن تتزاحم مع الكلاب عندما تريد أن تشبع بطنها من فضلات الطّعام التي يلقيها

السّادة؛ وعلى العكس من هذه الطّائفة توجد طوائف أخرى مقدّسةٌ ومحترمَةٌ. فإذا جاء أحد أفراد الـ **(غورو)** لزيارة إحدى القرى نشاهده محاطاً بالخيّالة والفرسان، تتقدّمه فرقةٌ موسيقيّةٌ، وبعضٌ من الرّاقصات وحاملو البُخُور، وتُفرش أمامه الطّنافس والسّجّاد الفاخر، وتُعقد أقواسُ النّصر، وإذا ما بذلت الطّوائف الدّنيا من المال الكثير، والجهد العظيم لاستقباله، تكون قد قامت بالتزاماتها الاجتماعيّة، **وأمّا إذا حصّلت إحدى الطّوائف قسماً من الرّماد الذي تخلّفه النّار الموقدة لحرق البُخُور، فإنّها تكون قد حقّقت السّعادة الأبديّة التي تحلم بها.** وعلى النّقيض من ذلك، نجد أفراد بعضٍ من الطّوائف الأخرى يبيعون زوجاتِهم وبناتِهم وأولادَهم من أجل أن يجمعوا بعضاً من المال، ليقدّموا به هديّة لـ (الغورو) الذي يضمن لهم السّعادة في الدّنيا والآخرة. فما هي الأسس الوجوديّة التي تقوم عليها هذه الأوهام والخرافات التي يعتقد بها الهنود؟ وما هي الأسباب التي أدّت أو ستؤدّي إلى تبديلها وتغييرها؟

لقد ارتضى المجتمع الهنديّ بالطّائفة **(البرهميّة)** لأن تكون الحصنَ المنيعَ لاستمرار نظام الطّوائف، وأن يكون بيديها الميزان الذي تزن به منزلة كلّ طائفةٍ وتعيّنَ واجباتٍ وامتيازاتِ كلٍّ منها. **وتنصّ التّعاليم الدّينيّة الهندوسيّة على التّمييز بين الطّوائف، فتحدّد درجة الطّائفة، وحقوقها، وامتيازاتها بعدد الاحتفالات التي تُقام، ومقدار المبالغ المفروضة على كلّ طائفةٍ**، ولكنّ هذه التّعاليم تكون دائماً وأبداً في مصلحة الطّائفة البرهميّة. ومن الضّروريّ أن نتذكّر أنّ التّدافع والتّنافر هما اللّذان يجعلان الطّوائف الواحدة منعزلةً عن الأخرى،

**حتّى إنّ الهندوسيّ يفضّل الموت عطشاً على أن يشرب من قدحٍ شرب به أحد أفراد الطّوائف الدّنيا**، وإذا أكل أحد الأفراد طعاماً محرّماً فإنّه يصبح منبوذاً.

يبدو أنّ المجتمع الهنديّ لم ينقسم ولم يتجزّأ إلى أقسامٍ صغيرةٍ، متدرّجةٍ في المراتب، إلّا ليتيح الفرصة للبرهميّ لأن يستغلّ المؤسّسات الدّينيّة والدّنيويّة، وأن يسخّرها لمصلحته بوساطة بعضٍ من الأوهام والخرافات والأساطير التي يفرضها على الطّوائف. وبمعنىً آخرَ: إنّ الطّائفة البرهميّة قد قسّمت المجتمع الهنديّ، لتبسط نفوذها عليه، وتتحكّم فيه.

يقول بعضٌ من الباحثين: إنّ العامل المهمّ في التّقسيم الطّائفيّ في الهند، هو تقسيم العمل، فالطّائفة التي تشتغل في أكثر الأعمال بدائيّةً في التّاريخ الإنسانيّ، تكون في أسفل المراتب والمنازل، مثل طائفة الصّيّادين، **وتساهم صعوبة المهنة، ودرجة تطوّرها، وفائدتها في التّرتيب الاجتماعيّ؛ فإن كانت المهنة بدائيّةً لا تحتاج إلى مهارةٍ وفنٍّ، تكون مكانتها الاجتماعيّة متدنّيةً وقليلةً**. وهكذا تعبّر كلّ عائلةٍ وطائفةٍ عن مرحلةٍ من مراحل تطوّر الإنسانيّة في الحِرَفِ والمِهن.

ولكنّما هو ضروريٌّ أن تحيط بكل صناعةٍ مجموعةٌ من الأوهام والأساطير والخرافات، أو من التّقييم الاجتماعيّ لكلّ مهنةٍ، حيث تنظّم الطّائفة واجبات جميع الأفراد، وتسيطر على الحياة الخاصّة للأفراد، أي إنّ وجود الأوهام عن كلّ مهنةٍ ضروريٌّ لقيام الفواصل والمسافات النّفسيّة

والاجتماعيّة بين الطّوائف، ولاستمرار التّدافع والتّباغض. وتكشف الأوهام والخرافات والأساطير عن الأسباب التي جعلت بعضاً من الموضوعات مقدّسةً يجب عدم مسّها من قِبَل بعضٍ من الطّوائف، بينما سمحت لطوائفَ أخرى القيام بما هو محرّم. ويقوم البرهميّ بـ (فبركة) الآراء وصنع الأوهام، فهو القادر على تسيير الرّياح وتسخير الأمطار، وهو الذي يعطي الخصب والبركة، وهو الذي يقول: إنّ أحسن وسيلةٍ لتتخلّص من الشّرور والآثام، هي تنظيم الصّلوات والاحتفالات الدّينيّة، وتقديم القرابين والنّذور، وإذا اتّصلت مهنة الفرد ببعضٍ من الموضوعات المقدّسة فسوف يكون أرفعَ منزلةً في السّلم الاجتماعيّ من مهنةٍ أخرى، فصيّاد السّمك أرقى من قنّاصي الحيوانات، لأنّ الصّياد يتّصل بالماء المقدّس! **ويتوقّف تقدير الهنود للمهن المختلفة على الأوهام والخرافات الملصَقَة بكلّ مهنةٍ، وعلى فكرتَيْ الحلال والحرام.**

يؤكد النّظام الطّائفيّ على النّفرة بين النّاس، ويمنع المشاركة في الطّعام والشّراب والزّواج، لأنّ الطّعام المشترك لا يربط الإنسان بالآلهة فقط، وإنّما يربط النّاس بعضهم مع بعضٍ، إضافةً إلى أنّ الطّعام المشترك يخلق التزاماتٍ اجتماعيّةً متبادَلةٍ؛ ومهما اختلفت الطّوائف في خصائصها ومميزاتها، ومهما كانت منعزلةً ومنفصلةً، فإنّ عاملاً يجمع بينها، ألا وهو الوهم المشترك الذي يدور حوله احترام البراهمة وتقديسُهم! فعلى الرّغم من أنّ كلّ طائفةٍ تشكّل حلقةً مغلقةً لا ينفذ إليها أفراد الطّوائف الأخرى، إلّا أنها مفتوحةٌ أمام البراهمة؛ فهم الذين يرأسون الاحتفالاتِ الدّينيّةَ والعائليّةَ، وباسمهم يأكل الهنود.

**يُعدّ تقديس البرهميّ واحترامه في الهند العربون الذي يدفعه الهنديّ للحصول على المعرفة وعلى الفضيلة**، وعلى كلّ حالٍ فإنّ نظام الطّوائف يقسم المجتمع الهنديّ إلى أجزاءٍ ومقاطعَ مغلقةٍ بعضها عن بعضٍ، ولا توّحد بينها أيّة صلةٍ، ولكلّ طائفةٍ اختصاص مهنةٍ، فتكون جميعها نظاماً متدرّجاً ومتسلسلاً من المراتب الاجتماعيّة، وكانت الفكرة الطّائفيّة تقاوم توحيد الهند، وتأسيسَ دولةٍ مركزيّةٍ قويّةٍ.

أنتج نظام الطّوائف فوارق اجتماعيّةً عظيمةً، ولم يستطع نظامٌ سياسيٌّ القضاء عليه، ولكنّ (البوذيّة) **حاولت جمع المتذمّرين والسّاخطين للوقوف في وجه النّظام الطّائفي**، وليس من الصّحيح القول: إنّ (البوذيّة) كانت تهدف إلى حماية الجماهير والدّفاع عنها. ولم يَدُرْ في خلد (البوذيّة) أن تعيد بناء المجتمع الهنديّ على قواعدَ جديدةٍ، ومع أنّها دعت إلى بعضٍ من الآراء الإصلاحيّة، إلّا أنّها لم ترفع علم الثّورة الاجتماعيّة على النّظام القائم، وإنّما سهّلت الهروب والانهزام من الواقع، وشجّعت روح التّشاؤم، وحالت دون انتشار الفِكَرِ الدّاعية إلى المساواة، وعَدّت (البوذيّةُ) الحركةَ سيّئةً؛ فإذا أراد الفرد الطّمأنينة والرّاحة فعليه أن يجد ملجأً في الرُّوح العامّة الشّاملة غير المتحرّكة، لأنّها الملجأ الوحيد الذي تتخلّص فيه روح الفرد من مآسي العالم وآلامه، وستردّد روح الفرد العبارة التّالية: إنّ هذه الدّنيا العابرة مأساةٌ فارغةٌ، ليس فيها جوهرٌ، كلّ ما عليها فانٍ، ولا يمكن الوثوق بها، ولا الاعتماد عليها، صفتها التّبدّل والتّغيّر.

لم يبقَ النّظام الطّائفيّ في الهند على ما عليه من حدودٍ وفواصلَ، والسّبب في ذلك الهزّات العنيفة التي نتجت عن حركة التّحضّر والثّورة الصّناعيّة، حيث استخدم الهنود التكنولوجي (النّظام الآليّ) وصار الأفراد من طوائفَ مختلفةٍ ومتباينةٍ في المركز الاجتماعيّ يعملون سويّة في المصنع، فالتّقيّ (الطّاهر) و (النّجس) و (الحلال) و (الحرام) و (السّيّد) و (المنبوذ) و (الأبيض) و (الأسود) في صعيدٍ واحدٍ، ويشربون الماء من منهلٍ واحدٍ، ويعملون في مصنع واحدٍ، ويركبون قطاراً واحداً، **ولأجل أن يتقبّل النّاس هذه التّطوّرات، ولا يقاوموها، أشاع بعضٌ من الأذكياء أنّ الأجور التي يدفعها الهنود، هي الضّريبة الدّينيّة التي تغفر لهم الذّنوب التي اقترفوها.**

إنّ تغيّر الأسس الوجوديّة أحدثت تبدّلاتٍ في الأوهام والخرافات التي أوجدها النّظام الطّائفيّ، وشجّع القوميّة، ومقاومة الاستعمار، بفضل كسر الحدود النّفسيّة والاجتماعيّة التي كانت تفصل بين الطّوائف، وانتشار الوعي بضرورة القضاء على النّظام المؤسّس على التّنافر، والتّباغض، والفوارق؛ فإذا انقسم المجتمع إلى طوائفَ متباغضةٍ ومتحاسدةٍ، فإنّ كلّ طائفةٍ تخلق لها أوهاماً وأساطير تعزّز فيها الحدود التي تفصلها عن الطّوائف الأخرى، أوهاماً تتعلّق بنقاوة الدّم وكرم الأَرُومة، وشرف العنصر، وسموّ الأخلاق، وكثرة الفضائل، ورِفعة المكانة، وعذوبة اللّغة، وغيرِها من الأمور، وبهذا يكون الإطار الاجتماعيّ مصدر الأوهام والأصنام كافّةً، فيصبح انقسام المجتمع أسبقَ في الوجود من ظهور الأوهام، فإذا انقسم المجتمع إلى قبائلَ، وطوائفَ،

وأحزابٍ، وشيعٍ متنازعةٍ ومتنافرةٍ، فإنّ الموضوعات الاجتماعيّة كافّةً، تتوزّع على ذلك التّقسيم.

ولا يقف أثر الأسس الوجوديّة في تكوين الأوهام والخرافات فقط، بل يتعدّاه إلى تكوين الأحلام، فإذا حصل شيءٌ من المعارضة بين الواقع الاجتماعيّ، ومطامح الفرد، كان الطّريق ممهّداً لظهور الأحلام! فلا يستطيع الفرد أن يتذكّر إذا لم يجد في إطارات الذّاكرة الجماعيّة مكاناً للحوادث الماضية التي تهمّه ويعنيه أمرُها، وتكون الذّكريات أكثَرَ خصباً إذا اتّصلت بعددٍ كبيرٍ من الإطارات التي تتعارض وتتشابك بعضها مع بعضٍ؛ أمّا النّسيان فهو اختفاء تلك الإطارات أو قسمٍ منها، وهو ناشئ عن عدم قدرتنا على تركيز اهتمامنا حولها.

إنّ الشّرط الأساسيّ لتكوين الذّكريات الجماعيّة، هو اشتراك النّاس في حياةٍ جماعيّةٍ يستعملون كلماتٍ في لغةٍ تتضمّن كلُّ كلمةٍ مجموعةً من الذّكريات. وقد دلّت الملاحظة على أنّ الحلم لا يَقْدِرُ على إعادة ذكرى الحوادث المعقّدة، وإنّما يكشف عن بعضٍ من إطارات الذّاكرة الجماعيّة التي تستند عليها الذّاكرة الفرديّة.

**إنّ الاعتقاد بالأوهام، وعبادة الأصنام، والإيمان بالخرافات والأساطير مفروضةٌ علينا من المجتمع الذي نعيش فيه، من العائلة التي وُلدنا فيها وترعرعنا، واكتسبنا مقوّمات شخصيّتنا، ونلنا طبيعتنا البشريّة، ومن المحيط**

الاجتماعيّ، والفئة الاجتماعيّة التي ننتمي إليها، فلا يمكن إذاً الفصل بين ما يحمله الفرد من أوهامٍ وخرافاتٍ وأساطيرَ وبين ما تفرضه عليه الجماعة، ولا يمكن العزل بين أنماط السّلوك الفرديّ، كالرّياء والنّفاق، والسّلوك الحَربائيّ، والإخلاصِ والخيانةِ والوفاءِ، وغيرها، من أنماط السّلوك الجماعيّ، فمن الضّروريّ إذاً ألّا نفصل بين وجدان الفرد ووجدان الجماعة، ومن الواجب دراسة وجدان الجماعة لمعرفة وجدان الفرد.

والخلاصة هي، أنّ علماء الاجتماع قد أكّدوا على وجود علاقةٍ بين طبيعة الإنسان والتّحيّز والأنانيّة، ونعني بطبيعة الإنسان هنا الأحاسيسَ والمشاعرَ الإنسانيّة الشّاملة التي تشتمل على كلّ الجنس البشريّ كالمحبّة والكراهية، والوفاء والإخلاص، والحسد والغيرة، والنّفاق والرّياء، وغيرها من الصّفات التي ينالها الإنسان، ويكتسبها من معيشته في العائلة وفي المجتمع، وهناك علاقةٌ وثيقةٌ بالنّظام الاجتماعيّ الذي نرمز إليه من باب التّجاوز باصطلاح (الأصنام الاجتماعيّة والأوهام والخرافات والأساطير).

يكاد علماء الاجتماع يجمعون اليوم على ترك فكرة **"بيكون"** القائلة بوجود نظامٍ إلهيٍّ في الطّبيعة وفي المجتمع الذي يجب أن يكشف الإنسان عنه بالمعرفة المجرّدة عن الشّوائب، وعلى عدم التّسليم بكلّ مفهومٍ يدعو إلى تفسير الظّاهرات الاجتماعيّة بعاملٍ واحدٍ اقتصاديٍّ، أو سياسيٍّ، أو اجتماعيٍّ، أو جَغرافيٍّ... ولكنّهم يقولون بتعدّد العوامل، وتعدّد الظّاهرات، وأنّ هذه

العوامل يؤثّر بعضها في بعضٍ إلى درجةٍ لا نستطيع أبداً أن نضع أصبعنا على واحدٍ منها من دون أن تتأثّر بقيّة العوامل لوجود علائقَ حركيّةٍ بينها.

وربّما يصحّ القول: إنّهم يعتقدون بشمول الأنانيّة وعموميّة التّحيّز كما كان الحال في التّفكير القديم، ويقولون: إنّ الأحوال المعاشيّة، والاضطرابات العاطفيّة، والزّواجر الحضاريّة هي التي تشوّه المعرفة وتزيّف الفِكَرَ والآراء؛ **ويؤكّد علماء الاجتماع على أنّ الطّريق الوحيد للتّخلّص من التّشويه والتّزييف بالحصول على المعرفة الموضوعيّة، ولكن كيف نضمن الوصول إلى (الموضوعيّة) إذا كان التّحيّز شاملاً وعامّاً، وكانت طبيعة الفرد نتاجاً للتّأثيرات المختلفة التي يتلقّاها من الفئة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها والحضارة التي يساهم بها؟!.**

ولمّا كان التّفكير، وتحكيم العقل يستلزمان اتّباع قواعد المنطق، والطّريقة العلميّة أكثرَ من اتّباع الأوهام والأساطير المؤسّسة على التّقاليد والأعراف، فإنّ الأفراد الذين يخضعون خضوعاً تامّاً للأصنام، أو الذين يضيّقون الخناق على حرّيّة التّفكير العلميّ خوفاً من تغيّر مواقف النّاس نحو أصنامهم، لا يقدرون أن يحقّقوا الموضوعيّة في البحث.

ليس من السّهل أن يتجرّد الإنسان من عواطفه ومشاعره وأوهامه، عند البحث عن مشكلة التّحيّز والتّعصّب لصنمٍ من الأصنام، أضف إلى ذلك أنّ الدّقّة والضّبط في استعمال الطّريقة العلميّة كما هي مطبّقةٌ في العلوم الطّبيعيّة

غير ممكنٍ، وخاصّةً في موضوعٍ شائكٍ كالبحث عن أثر الأصنام الاجتماعيّة في الرّياء والنّفاق والتّحيّز.

كان "**بيكون**" مهتمّاً بالشّكّ، فقال بوجوب إخضاع كلِّ قولٍ مهما كان مصدره دقيقاً للّحْظ والتّجربة. حيث يوجد تشابهٌ بين مشكلات العلوم الطّبيعيّة ومشكلات العلوم الاجتماعيّة، إذ يحاول علماء الاجتماع أن يبعثوا الأمل في السّيطرة على القوى الاجتماعيّة كما سبق، وأن يسيطر علماء الطّبيعة على القوى الطّبيعيّة.

قد تساعد الطّريقة العلميّة على إيقاظ وعي الباحث بما يحيط به من تحيّزٍ، وتعصّبٍ، وأوهامٍ، وأصنام؛ ولكنّ هذه الطّريقة لا تعصمه أبداً عن الوقوع في مزالق التّحيّز ومهاوي الأساطير والخرافات، ولا يمكن القضاء على نوعيّة الأوهام وأشكالها ومضامينها، إلّا إذا تغيّرت الأسس الوجوديّة التي تقوم عليها! وقد صار الهنود ينادون بأعلى أصواتهم بوجوب القضاء على النّظام الطّائفيّ، ويحاولون أن يؤسّسوا دولةً قوميّةً تذوب في بوتقتها كلّ الأصنام والأوهام الطّائفيّة، لتُؤَسَّسَ محلَّها أوهامٌ وأصنامٌ جديدةٌ.

# الفصل الرابع

# سدنة الأصنام

تحيط بالصّنم الاجتماعيّ سدنةٌ قادرةٌ على تزييف الحقائق، وتشويه الواقع، وهي تتكوّن من فريقين أساسيّين، يختلفان في المصلحة والسّلوك والتّفكير، وهما فريقٌ من الثّعالب المراوغة المخادعة، ذات السّلوك الحَربائيّ، وفريقٌ من الذّئاب المفترسة، التي تتحيّن كلّ فرصةٍ، وتستغلّ كلّ مناسبةٍ لتحقيق مآربها، وتأمين مصالحها.

ففي الأزمات الاجتماعيّة، حين تضطرب المقاييس، ويزداد الشّكّ في السّيطرة الصّنميّة، يشيع التّلوّن، وتكثر الحيلة والمراوغة، وعندما يستتبّ الأمر وتمارِس وسائلُ السّيطرة نفوذَها، تبدأ الذّئاب في نهش الأعراض، وقطع الأرزاق، وغلق أبواب الحياة. **وإنّ الغاية التي يسعى إليها السّدنة محدودةٌ ومؤقّتةٌ ومقطعيّةٌ، تتناول مصلحة فئةٍ معيّنةٍ صغيرةِ الحجم، وتغتنم الفرصة، فإنْ هبّت الرّيح من جهتها استغلتها إلى أقصى حدٍّ، وليس من مصلحتها أن تُوزّع الأسلاب والغنائم على عددٍ كبيرٍ من النّاس، فيجب أن تُظهِر قدرَتَها على دفع السّذّج أو الخبثاء من عبدة الصّنم في السّلم الاجتماعيّ بحركة رأسيّةٍ نحو الأعلى؛ ولا تحاول السّدنة أن تتعقّب أهدافاً ساميةً عاليةً، وإنّما تريد تحقيق أغراضٍ مباشرةٍ وآنيّةٍ.**

تتمتّع السّدنة بمختلف الامتيازات التي وهبها الصّنم لها، حتّى صارت تلك الامتيازات أمراً واقعاً مشروعاً، وتَعُدّ السّدنة كلّ شيءٍ يناقض عقيدتها وإيمانها بالصّنم باطلاً ومزيّفاً، ولمّا كان الصّنم يرمز إلى حالةٍ اجتماعيّةٍ معيّنةٍ، فلا يمكن زوال الصّنم إلّا بزوال الحالة، وما دام المجتمع يتألّف من فئاتٍ صغرى كثيرةٍ، ذاتِ مصالحَ متعارضةٍ ومتباينةٍ... فمن المنتظَر أن يستحكم العداء بينها، ويسود الخصام، حتى يصبح الوصول إلى معرفةٍ (موضوعيّةٍ) وسط نزاعٍ قِيَمِيٍّ ومصلحِيٍّ صعباً جدّاً.

إنّ استعمال القوّة والزّجر أمرٌ جوهريٌّ وذلك لانتزاع اعتراف النّاس بأهمّيّة الصّنم، وإدخال الرّهبة في قلوبهم، ولكنّ الذين يعرفون بواطن الأمور، يدركون الدّور الذي تقوم به اليد الخفيّة الكامنة وراء الصّنم في مجتمعٍ مُؤسَّسٍ على الأوهام والأساطير التي تضيف القدسيّة والاحترام له؛ أمّا السّدنة التي لا تؤمن بقدسيّته في أعماق قلبها، فتميل إلى استعمال اللّين، والموازنة، والتّوافق المؤقّت. أمّا أولئك السّذّج البسطاء من الجمهور الذين يؤمنون إيماناً مطلقاً بقوّة الصّنم وسلطانه، فإنّهم يبطشون ويفتكون بالمعارضين.

ولعلّ السّبب في استعمال اللّين، والمراوغة، والنّفاق، والحيلة، يرجع إلى أنّ السّدنة مدفوعةٌ بمجموعةٍ متباينةٍ ومختلفةٍ من الدّوافع والمصالح، أضف إلى ذلك عدمَ استعدادها للتّضحية من أجل الصّنم، وعدمَ رغبتها في اللّجوء إلى التّدابير المتطرّفة المكشوفة التي تثير روح الانتقام في النّاس، خوفاً من تألّبهم وانتفاضتهم، ولهذا تميل إلى النّفاق والرّياء، والدّسيسة، والخداع، والتّلوّن.

يتلخّص واجب السّدنة في خلق الأوهام وإشاعة الخرافات، ونشر الدّعايات الهادفة، والتفنّن بالوشاية والنّفاق، والتّخصّص في الانتقام والتّعذيب وقطع الأرزاق في سبيل المحافظة على امتيازاتها ومصالحها، وتتّخذ السّدنة من الصّنم وسيلةً لتحقيق أغراضها وأهدافها، وإذا بقيت السّدنة في السّدانة مدّةً طويلةً، وانتشر الوعي بين المحرومين السّاخطين المتذمّرين، بأنّها استغلّت الصّنم كثيراً، سَرَتْ في النّاس موجةٌ من النّقد والشّكّ، حتّى تظهر على شكل مظالمَ يتبنّاها فريقٌ جديدٌ من النّاس يريد أن ينال الامتيازاتِ ذاتَها، أو بعضاً منها، فيبدأ النّزاع بين السّدنة القدامى والزّمرة الجديدة، إلى أن تأخذ محلّها أو تندمج معها، وذلك بعد عمليّةٍ من المساومة والمهادنة، وإلّا استعملت إحداهما القوّة والعنف في طرد الأخرى؛ **فيصبح تاريخ التّباغض الاجتماعيّ، والتّحاسد والتّدافع سلسلةً من المنازعات التي تحدث بين سدنةٍ استقرّ كيانُها، وأخرى تريد أن تخرج خطمها إلى الأعلى، حيث السّلطة والقدسيّة.**

يتضّح ذلك في تاريخ كلّ أمّةٍ ومجتمعٍ بدائيٍّ أو متقدّمٍ، ولنأخذ انكلترا مثالاً على ذلك، حيث اتّخذ المحافظون من شخصيّة زعيم الحزب رمزاً لأوهامهم، وقيمهم التي تدور حول الفكرة القائلة بعدم الثّقة في مقدرة الإنسان على تحسين النّظام الاجتماعيّ بقوّة العقل، وترفض فكرة أنّ الدّولةَ مؤسّسةٌ أوجدها النّاس من أجل راحتهم وطمأنينتهم، وأنّ باستطاعة النّاس إعادة تنظيمها متى شاؤوا؛ ويؤكّد المحافظون على أنّ الدّولة هي قيمةٌ بحدّ ذاتها، مستقلةٌ عن الأفراد، وأنّها ظهرت للوجود من دون عملٍ مقصودٍ من قِبَلِ

الأفراد، وأضفى المحافظون على الزّعيم كلّ صفةٍ تجعله بطلاً عبقريّاً، فأُقيمت التّماثيل، ونُصبت أقواس النّصر، ووُضعت اللّوحات الفنيّة، وعملوا كلّ ما في وسعهم للبقاء في الحكم. **ولكن هناك سَدَنَةٌ من طرزٍ آخر، يحيطون بصنمٍ معارضٍ تدور حوله أوهامٌ وخرافاتٌ وأساطيرُ مختلفةٌ، يحاولون أن يمسكوا بالسّلطة والقدسيّة بأيّ ثمنٍ كان، عن طريق ترويج الإشاعات، ونشر الدّعايات، وما إن تُتَحْ الفرصة للمحافظين حتّى يبدؤوا بالمعارضة وإشاعة أوهامٍ جديدةٍ!** هكذا يكون تاريخ الصّراع بين سدنة الأصنام، روايةٌ مسرحيّةٌ، تُمَثَّل على مسرح الحياة، ولا تهدف إلى تحقيق الأوهام التي أشاعها الممثّلون عندما كانوا خارج السّلطة.

يوجد بين السّدنة أعضاء يتميّزون عن غيرهم باختصاصهم، حيث يعنون بمشكلات المجتمع والحضارة والإنسان، ويهدفون إلى التّأثير في سلوك النّاس، وأساليب عملهم وتفكيرهم، بهدف تعبئة آرائهم في المناسبات التي يتطلّبها بقاء الصّنم واستمرارُه؛ ويحاول السّدنة أن يخلقوا بؤرة انتباهٍ للنّاس، بعيدةٍ عن الواقع، ولكنّها تستغل مشاعرهم وأحاسيسهم، وأن يعملوا على تحليل وتفسير مشكلات النّاس تفسيراً متحيّزاً ومغرضاً يتوخّى تحريف الواقع وتشويهه.

وكثيراً ما يعتمد استمرار الأصنام في السّلطة والقدسيّة على الأوهام والأساطير التي يؤمن النّاس بها عن قدرة الأصنام، ولقد تهكّم الأديب الكبير "**برناردشو**" بالنّظام الدّيمقراطيّ فعدّه عبادةً لبعضٍ من الأصنام، وإيماناً ببعضٍ

من الخرافات حتّى تظهر تلك العبادة فتكون طقوساً ثابتةً تصير نواةً صلبةً، تعمل على جمود المجتمع وثبوته، فتقاوم كلّ تبديلٍ أو تغييرٍ؛ وتتّخذ السّدنة من الأوهام والأساطير سلاحاً للدّفاع عن مصالحها، ولتبرير الامتيازات التي تتمتّع بها، فعليها أن تنفخ في أوهامها روحاً جديدةً، ومعانيَ زاخرةً بالحياة، لتخفي الحالة الحقيقيّة، وتستر مصالحها. **فإن ظهرت مصلحةٌ جديدةٌ فمن الضّروريّ أن يبتدع السّدنة خرافةً جديدةً تناسب تلك المصلحة، فتكون المصلحة سبباً في الكذب والخداع**، وتكون السّدنة محوراً للتّفسير والتّحليل، وتعبّر الخرافة عن الرّياء، والنّفاق، والحيلة، والغدر. وإذا كانت الخرافة مجرّدةً من كلّ صلةٍ بالواقع، وتتفوّق في معناها وفي نتائجها على الحالة القائمة سمّيناها **(طوبى)**أي إنّها لا تتّصل بالنّظام الاقتصاديّ، والسّياسيّ، والاجتماعيّ القائم، وإنّما تعكس صورة مجتمعٍ آخرَ لم يتحقّق وجودُه.

تنشر السّدنة الأوهام لرعاية مصالحها وللدّفاع عن امتيازاتها، بينما تنبثق (الطّوبى) من حالةٍ خاصّةٍ لم يحصل فيها فريقٌ كبيرٌ من النّاس على شيءٍ ممّا يطمحون إليه، أو يطمعون به، حين تنقسم الهيئة الاجتماعيّة إلى أقسامٍ متناقضةٍ، تكون بأيدي إحدى الفئات السّلطةُ والرّموز المقدّسة، بينما لا تملك الفئات الأخرى غير الخيال والأحلام الذّهبيّة، وتعبّر الطّوبى عن الحرمان وعدم القدرة على تحقيق الرّغبات في هذه الحياة.

ويمكن القول باختصار: إنّ الوهم يعبّر عن رأي السّدنة، وتعبّر الطّوبى عن أخيلة وأحلام المحرومين، وعلى الرّغم من أنّ الطّوبى تعالج حالةً

لا وجود لها في الوقت الحاضر، فإنّ لها من القوّة والحيويّة ما تستطيع أن تدمّر أجزاءً معيّنةً من النّظام الاجتماعيّ، وتزخر بكلّ ما يبعث في النّفوس النّقمة على أوضاع السّدنة.

**يقول الكاتب الفرنسيّ "سوريل": إنّ الطّوبى فعاليّةٌ عقليّةٌ مجرّدةٌ، وزبدةٌ لنظريّات متعدّدة، تقارن بين حاضرٍ تستحوذ عليه العلل والأمراض الاجتماعيّة، ولا يكفل تحقيق أهداف الفرد والجماعة... وبين مدنٍ خياليّةٍ يرسم الكاتب فيها الأحلام الذّهبيّة التي يتمنّى أن يعيش تحت ظلالها؛ وإنّ هذه المقارنة تدفع بالإنسان لأن يعمل ويناضل في سبيل إقامة تلك المدن الخياليّة، فالخرافة تشبه الطّوبى، إذ لطالما دفعت الجماهيرَ في التّاريخ للقيام بالانقلابات والثّورات، وعُدّ التّاريخ والتّبدل الاجتماعيّ حلقةً من حلقات الكفاح لتحقيق الخرافة.**

تتراوح الأوهام في خداعها بين كونها أقنعةً مصنوعةً من الأكاذيب المقصودة التي تشوّه الواقع إلى تحريفٍ غير مقصودٍ. وتشير (الطّوبى) إلى محاولة المحرومين والنّاقمين والسّاخطين الهروب من الواقع، ومن الموضوعات التي خلقت الحرمان، والنّقمة والسّخط، إلى موضوعاتٍ خياليّةٍ مجرّدةٍ عن طريق الإعلاء والتّسامي في أساليب التّفكير، وفي نقل مركز الثّقل في الخبرة إلى موضوعاتٍ لا وجود لها في الوضعيّة الحقيقيّة.

وقد تتّهم السّدنةُ كلَّ الآراءِ والأوهامِ التي تناقض آراءَ وأوهامَ السّدنة التي بأيديها السّلطة، والرّموز المقدّسة بأنّها طوباويّةٌ لا يمكن ترجمتها إلى

الواقع، وإذا كانت الطّوبى بعيدةَ التّحقيق، وليس لها أيّ تطبيقٍ واقعيٍّ على الحالة القائمة، فإنّها لا تهدّد مصالح السّدنة تهديداً خطيراً.

**يشتمل كلّ نظامٍ اجتماعيٍ على أوهامٍ خادعةٍ وعلى طوبى (خياليّةٍ)، تتنازعان على البقاء! فإن استطاعت (الطّوبى) أن تترجم مضامينها إلى الواقع ،أعلنت نزاعاً سافراً ضدّ الوهم المتمتّع بالسّيطرة والقدسيّة، حتى تستطيع أن تحقق مضامينها، فتمسك بالقدسيّة والسّلطة، فتصبح وهماً جديداً، وتنقطع عن كونها (طوبى)** لتتكون من جديدٍ أخيلةٌ يصبّ النّاس في مضامينها حرمانهم، وسخطهم، وطموحهم، وأملهم؛ فتظهر (طوبى) جديدةٌ تنازع وتقارع الوهم الجديد الذي كان طوبى الأمس، ومن نتيجة الصّراع بين الوهم و(الطّوبى) تنشط الفئات الاجتماعيّة، ويزخر المجتمع بالحيويّة، وتندفع السّدنة، ويستمرّ التّفكير في الحركة.

أمّا إذا تجاهلت (السّدنة) الواقع الحركيّ، ولم تقرّ الصّراع بين (الوهم) و (الطّوبى) وتتبلّدْ في قطع الطّريق على كلّ وهْمٍ جديدٍ خوفاً من أن يسيطر على ضمائر النّاس وأعمالهم، فإنّ الوهم الذي تحاول (السّدنة) فرضه بالإكراه والقسر يكون خميرةً لموادّ متفجّرةً تنفلق عندما تنضج الحالة فيتمزّق شمل السّدنة، وتنهار الأصنام القديمة ليتأسّس بدلاً منها مجاميع من الأوهام والأصنام الجديدة.

تدلّ الحوادث التّاريخيّة على أن الأوهام مِنْ خلق، وإبداع، وشرح، وتحليل السّدنة الذين يحوزون بأيديهم الرّموز المقدّسة، والذين يدافعون عن مصالحهم، ويوجّهون بها آراء النّاس، ويسيطرون على تفكيرهم؛ فليست الأوهام من خلق الصّدفة واللّدنيّة، ولا الشّياطين، وإنّما تمتدّ جذورها في الحالة الاجتماعيّة، وتشير الحوادث التّاريخيّة ذاتها إلى أنّ طموح الفئات الذي لم يتحقّق بسبب القيود، والسّدود، والحدود التي تقيمها السّدنة... يظهر على شكل مدنٍ طوباويّةٍ، وأحلامٍ ذهبيّةٍ تكون أفيوناً يخدّر المحرومين، ويقلّل من غلواء الوضع المرير، إلى حدّ يعدّ النّاس فيه الحالة الحاضرة زائلةً، وأنّهم سيكافؤون بحالةٍ أخرى، تضمن كلّ حاجاتهم ورغباتهم، فما عليهم إلّا أن يصبروا، ويقنعوا، **ويرضوا بكلّ ما هو (مقسومٌ لهم ومكتوبٌ على جباههم)**. وعلى الرّغم من ذلك، فقد تكون الطّوبى واقعاً في طريق التّكوين، أو إنّه لم ينضج بعد، أمّا التّمييز بين الأوهام التي تخدم أهدافاً عمليّةً ومباشرةً، وبين الأساطير والخرافات الطّوباويّة، فإنّه رهنٌ بيد (السّدنة) ولو أنّه من الصّعوبة بمكانٍ أن نضع حدوداً قاطعةً وواضحةً بين (الأوهام) و (الطّوبى)، وذلك لوجود استمراريّةٍ في التّدرّج، لأنّ أوهام اليوم كانت طوبى الأمس، وطوبى اليوم قد تصبح وهمَ الغد، ونعني بالأوهام الأخيلةَ والتّصوّراتِ المشوّهةَ عن الماضي والحاضر.

فإذا وقفت السّدنة في طريق تحقيق رغبات النّاس، وحالت دون ضمان حاجاتهم ضمن إطار الحالة القائمة، فستجد تلك الرّغبات تنفيساً وتعبيراً في

بناء مدنٍ خياليّةٍ خارجةٍ عن عامِلَيْ الزّمان والمكان، يودع فيها الكاتب أو الفيلسوف كلّ ما يتمنّاه ويطمح إليه؛ **وليست (الطّوبى) مجموعةً من الانفعالات والانعكاسات بين الكاتب وضميرِه، ولكنّها رغباتٌ اجتماعيّةٌ لم تجد مجالاً للتّحقيق، وإذا أردنا أن نعرف الأسس الوجوديّة للطّوبى فعلينا أن نعرف طبيعة الفئة الاجتماعيّة التي تبنّتها واعتنقتها، وعلاقتها بالسّدنة التي كانت تحول دون تحقيقها.**

تنبثق العقليّة الطّوباويّة من الفئات المضطهدة المحرومة، ولنضربْ مثالاً ممّا كتبه الطّوباويّ الإنكليزيّ "**توماس مور ١٤٧٨-١٥٣٥**" في طوباه خلال مدّة ثورة الكنيسة الإنكليزيّة، ومحاولة فصلها عن روما في عهد "**هنري الثّامن**" وتشتمل طوباه على مقارنةٍ صريحةٍ بين دولةٍ مثاليّةٍ في عهد "**هنري السّابع**" و "هنري الثّامن" اللّذَين كانا يحكمان حكماً مطلقاً، وكان الفلّاح الإنكليزيّ في فاقةٍ سوداءَ لا يستطيع أن يسدّ رَمَقَه؛ وكانت البطالة متفشّيةً وعامّةً، وكان العقاب قاسياً وشديداً لمن تسوّل له نفسه أن ينبس ببنت شفةٍ ناقداً النّظام القائم! لهذا لم يكن "**مور**" قادراً على أن ينتقد بصراحةِ الظّروف التي كانت تجتازها انكلترا، التي كانت تزخر بالتّفسّخ، والتّحلّل، والعقاب، والفقر، والبطالة، والتّعذيب. وكان مقياس "مور" للنّظام الجيّد، يستند على فكرة التّعاون والتّضامن بين طبقات المجتمع، وأنّ لكلّ طبقةٍ وظائفَ وحقوقاً يتمّ بإنجازها تحقيق الخير العامّ لكلّ الطّبقات؛ وقد حدّد "مور" هدف هذه الجماعة بالعمل على تكوين مواطنين صالحين، وضمان الحرّيّة الخُلُقِيَة، وإعداد

رجال الفكر، وفي القضاء على البطالة، وفي تلبية الحاجات البدنيّة، وفي القضاء على التّرف والملذّات، وفي تقليل الفروق بين الأغنياء والفقراء.

هذا مثالٌ رائعٌ على العقليّة الطّوباويّة، فلو أراد (مور) أن يستر مصالحه، ويضع قناعاً على وجهه، لكان قد برّر حال انكلترا في مجموعةٍ من الأوهام والأساطير التي تدافع عن الحالة آنذاك. **وعندما تشتدّ رغبات النّاس ويحاولون التّنفّس والتّعبير عنها، يتّجه السّدنة إلى المطالبة بامتيازاتٍ أكثر، وصلاحياتٍ أوسع لاستعمال السّلطة، حتّى تزداد عبادة الأصنام وثوقاً ويترسّخ احترامها في قلوب النّاس.**

قلنا: إنّ سلطة الأصنام وقدسيّتها تستند على عقائد السّذّج من النّاس، ورغبات الذين لا يشاركون هؤلاء السّذّج في عقائدهم. ويعتقد النّاس بأنّ بعضاً منهم أصلحُ للزّعامة، والتّقديس والاحترام من الآخرين، إمّا بسبب ما يتميّز به أولئك من مقدرات، وقابليّات فوق مستوى البشر، أو أنّ قوىً سماويّةً قد حلّت بأجسامهم فجعلتهم أنصافَ آلهةٍ.

يظهر تقديس النّاس للأصنام في عبارات الاحترام، وألفاظ التّقدير والمديح عندما يُذكر اسم الصّنم، لكن يحاول أحد المتمرّدين أن يمسّ سمعة الصّنم بسوءٍ.

**يوجد نوعان من سدنة الأصنام:**

**١- السّدنة الذين بأيديهم الرّموز المقدّسة ووسائل السّيطرة، الذين يمارسون مختلف أنواع القسر والإكراه.**
**٢- السّدنة المعارضون الذين يتطلّعون إلى السّلطة والقدسيّة.**

يحافظ النّوع الأوّل على استمرار امتيازاته بالقوّة، ويريد الثّاني عن طريق الحيلة، والخداع، والمخاتلة، واستغلال تذمّر النّاس وسخطهم... الوصولَ إلى القدسيّة والسّلطة. فإذا اشتدّ النّزاع بين هذين النّوعين من السّدنة يميل النّوع الأوّل من السّدنة إلى تجريد النّوع الثّاني من الزّعامة، ومن كلّ ما يسهّل عليه عمليّة نشر أفكاره وأوهامه.

تتألّف السّدنة من خليطٍ غريبٍ وعجيبٍ، جاؤوا من كلّ حدبٍ وصوبٍ، ففيهم المهرّج المشعوذ الذي لا ضمير له ولا وجدان، يلعب على الألفاظ، ويستغلّ العواطف والمشاعر، والمتعلّم (غير المثقّف) الذي وضع مهارته، وفنَّه، وخبرته لخدمة الصّنم؛ **ويختلف (المثقّف الحقيقيّ) عن المهرّج أو المهيّج، إذ يتّصف (المثقّف) بعدم تحيّزه، وعدم تعصّبه لبعضٍ من الأوهام، لأنّه يبدأ في مناقشة الأوهام التي يعتنقها هو نفسه، ليكون حذراً ويقظاً من تأثيرها في الحقائق التي يجمعها، ويصنّفها، ويشرحها، ويفسّرها، ويحلّلها، ويعرضها.**

يَنذُر (المثقف) حياته لخدمة المعرفة وحدها، من دون أن يستخدمها لمصلحة صنمٍ أو سدنةٍ أو فئةٍ أو مقطعٍ، بعكس (المتعلّم) الذي وهب انتاجه

العقليّ لترويج نوعٍ من الدّعاية، وأوقف قلمه على الدّفاع عن أوهامٍ خاصّةٍ، تنشر السّموم في جسم الأمّة، وتوسّع شقّة الخلاف بين أبنائها، أمّا (المثقّف) فإنّه قد حرّر نفسه من الأوهام المقطعيّة التي يستغلها بعضهم لخدمة صنمٍ معيّنٍ، ووضعها في موضعٍ يشرف منه على المهاترات، والمنابذات، والنّفاق، والرّياء، والخداع، والحيلة ليستطيع أن يتدبّر نتائجها، ويتعرّف على أسبابها، ليَعْرِضَ للنّاس أجمعين، بغض النّظر عن انقسامهم العنصريّ، واللّغويّ، والدّينيّ، والطّائفيّ، والإقليميّ... الكذبَ والخيانةَ في كلِّ صنمٍ، لأجل أن يتّخذ كلُّ مواطنٍ موقفاً إيجابيّاً نحو الأصنام والأوهام، مبنيّاً على خبرةٍ حياديّةٍ وموضوعيّة نسبيّاً، وبذلك يقلّ التّباغض، والتّحاسد، وينخفض قدر التّذمّر.

تستقرّ أسس الأوهام والخرافات والأساطير التي تُشِيعُها السّدنة في المصالح الذّاتيّة، وفي المراكز الاجتماعيّة، وبذلك فإنّ الفرد لا يعبّر عن آرائه وأوهامه وتحيّزاته، وإنّما عن أسطورة فئةِ السّدنة التي ينتمي إليها، وكلُّ ما يهرّج به من أوهام وخرافات هو أقنعة مقصودةٌ وموضوعةٌ لتستر تلك المصالح. وتُظهِر السّدنة تضامناً غريباً في مناسباتٍ كثيرة، **فإن تبيّنت خيانة أحدهم، وتأكّدت جريمته، فإنّ السّدنة تقف من ورائه صفّاً واحداً للدّفاع عنه، وتبذل كلّ ما في وسعها لكسر القوانين، واللّعب على النّظام من أجل تخليصه، شعارها في ذلك انصر أخاك ظالماً.**

يبدو بكلّ وضوحٍ أنّ كلّ عضوٍ من السّدنة يناضل، ويكافح باتّجاهٍ وأسلوبٍ ذي صلةٍ وثيقةٍ بما لدى الآخرين من أساليب، ليستطيع أن يحافظ على امتيازاته ومصالحه.

وقد يحدث أن تُغالي السّدنة في التّطرف بأوهامها وخرافاتها وفي نزاعها، حتّى يصل الغلوّ إلى درجة التّأليه، فيعتري الصّنمَ الذّعر، فيشتدّ غيظه، حتّى يتبرّأ من الغالين خوفاً من تفاقم الحالة، وزيادة خطورتها، فيدعو إلى الاعتدال، وعدم الإمعان في التّطرّف.

يُروى عن "فرويد" أنّه قال مرّةً بصدد غلوّ أتباعه وسدنته في أثر العامل الجنسيّ: أنا لست فرويديّاً!. وذلك كي لا يجمدوا على ما لديهم من أوهامٍ وأساطير، وأن يفتحوا صدورهم وأذهانهم لما يَجِدُّ من البحوث العلميّة من حقائق، وألّا يكتفوا بما يملكون من حقائقَ وأفكارٍ، وألّا يدّعوا أنّهم قد توصّلوا إلى نهاية المعرفة المنزَّلة من السّماء، وأن يقبلوا النّقد والمناقشة.

**استطاعت السّدنة أن تؤثّر في تحديد الإنتاج الفكريّ الذي تبدعه الفئات المحرومة، وذلك بما تضعه من عراقيلَ، وعقباتٍ في طريق المعرفة، لأنها تعلم أنّ المعرفة قوّةٌ تعمل على الهبوط بالأصنام من الآفاق العليا إلى الواقع الأرضيّ، فتخضعها للنّقد والتّحليل والتّشريح. وتجعل السّدنة من أقوال الصّنم وخرافاته ومن سيماه وملامحه مقاييسَ دقيقةً للثّواب والعقاب، وكذلك للحكم على أعمال**

النّاس وسلوكهم، وإذا استمرّت الحال مدّةً طويلةً فلابدّ من أن يكون المستقبل الثّقافيّ مظلماً.

يقول السّدنة: يجب أن يعيش نوعٌ واحدٌ من المعرفة، وهو النّوع الذي يتّفق ومصالحَها، أي المعرفة المغرضة المتحيّزة، التي تقسم المجتمع إلى فئاتٍ متنازعةٍ ومتضاربةٍ، أمّا الأنواع الأخرى من المعرفة، فتوصف بكونها طوباويّة أو متطرّفةً، وممّا لاشكّفيه، أنّ الضّغط الذي تمارسه السّدنة مضِرٌّ بمستقبل الثّقافة، وأنّ تشويه الواقع وتحريفه طارئٌ، ولن يبقى على مرّ الزّمن.

لا يقف أثر السّدنة في المجتمع عند تحديد الإنتاج العقليّ، وإنّما يعيّن نوعَ العلاقة مع أحدهم مكانةُ ومصير النّاس الآخرين، الذين أُوصدت الأبوابُ في وجوههم، وتستغلّ كلَّ فرصةٍ لتوقع الأبرياء منهم في الهاويات والمزالق والمهالك، وتهدّد الآخرين في قُوتهم وأطفالِهم.

وما دام للسّدنة امتيازاتٌ وصلاحيّات تتحكّم بها في مصائر النّاس، فإنّها جماعةٌ مغلقةٌ ومؤصدةٌ، لا يدخل في صفوفها إلّا من اجتاز امتحاناً طويلاً من المتطلّبات التي تتوقّف في الغالب على مقدار استيعاب المرشّح لأوهام السّدنة وأساطيرها، واحترامِه لرموزها، وتقديسِه لصنمها، وخضوعِه لأعضاء السّدنة، وأوّلاً وقبل كلّ شيءٍ، أن يتنازل عن أوهامه الأولى وأن يتظاهر بالغباء، ويبرهن على عدم تأثّره بأيّة طوبى كان يحلم بها المحرومون، ويتجنّب

في لغته وكتاباته الألفاظَ والمصطلحاتِ (المشبوهةَ) كافّةً التي ترد على لسان النّاقمين والمتذمّرين، وأن يتبنّى أوهاماً جديدةً تتركّز حول السّلطة والقدسيّة.

تميل السّدنة بأوهامها وأساطيرها إلى أن تحدّد لكلّ مكانةٍ اجتماعيّةٍ خطوطاً أساسيّةً من الشّهرة والسّمعة والألقاب، وتلصق بكلّ مكانةٍ معانيَ تدعو إلى سمّوها ورفعتها حتّى تحثّ النّاس على عبادة أصنامها، وتجعل من كلّ تلك الأوهام الفارغة الجوفاء مغرياتٍ تستهوي بها الطّامعين من طلّاب الجاه.

ولا يوجد اليوم في الواقع مجتمعٌ ظهرت فيه السّدنة، وثبتت الأصنام، وترسّخت الأوهام لدرجةٍ لا يمكن تبديلُها أو تغييرها، وذلك يكون حين تتضافر الجهود، وينشط الوعي بمساوئها. **وقد كانت المجتمعات البدائيّة تتّخذ من الولادة والنّسب أساساً جوهريّاً في السّدانة، كسدانة الأصنام في مكّة، حيث كانت محصورةً في قريشٍ، وسدانةُ المعابد في الهند مقتصَرَةٌ على طائفة البراهمة؛** أمّا اليوم فقد تحوّلت سدانة الأصنام الاجتماعيّة إلى المتملّقين، المراوغين، الرّاكضين وراء شهواتهم، الصّيّادين في المياه العكرة، وهذا هو السّبب في صيرورة السّدانة في حركةٍ دائبةٍ وتبدّلٍ مستمرٌّ. فحين يشعر النّاس بالحاجة إلى أصنامٍ جديدةٍ لإدارة مصالحهم وتلبية رغباتهم، فسرعان ما يغيّرون ولاءهم وينقلون تقديسهم! فإن اضطرّت السّدنة القديمة لإحداث تغييرٍ في تكوينها وبنيتها، وفي توزيع الامتيازات والصّلاحيّات، يكون من الضّروريّ إجراء تبديلٍ كبيرٍ في خططها وفي أساليب عملها وتفكيرها.

تتغيّر السّدنة بين وقتٍ وآخر، وذلك نتيجةً لتبدّل العوامل الفعّالة في الحالة الصّنميّة، وتتجلّى في تبديل الامتيازات الاقتصاديّة التي كانت تتمتّع بها، وفي شعور بعضهم بالغبن والحيف، وفي تبديل الصّلاحيّات، والسّلطات وتوجيهها، وتحشد أحاسيسهم ضدّ السّدنة التي بأيديها السّلطة، والرّموز المقدّسة، والعصا السّحريّة، وقد يكون السّبب في قلق السّدنة واضطرابها، وعدم استقرارها، أنّها تغالي في الرّكض وراء الأوهام، والتّعصّب والتّحيّز، فتنيط بالبليدين الأغبياء حراسة الامتيازات، والسّهر على المصالح، فتكتشف بعد مدّةٍ وجيزةٍ أنّ هؤلاء البليدين الأغبياء قد سبّبوا لها المتاعب، وحالوا بين النّاس والصّنم، فلابدّ إذاً من اختيار من يحلّ محلّهم، ويقوم بواجبهم، وبذلك تتحدّد الحركة العموديّة في السّدنة، فتكون عاملاً في بعث الحياة في صفوف اليائسين، الذين ينتظرون الصّيد بفارغ الصّبر، ليأخذوا نصيبهم منه.

تكثر الإشاعات خلال تلك المدّة، وتنشط الأراجيف التي تحاول أن تفسّر الحوادث، وأن تتنبّأ عمّا سيقع في المستقبل؛ فكلّما وقعت السّدنة في مأزقٍ حرجٍ وخشيت أن تذهب السّلطة والقدسيّة من الصّنم الذي تستغلّه وتستفيد منه وتعبده... تنشر الإشاعاتِ لتخرج من الورطة التي هي فيها، وتكون الإشاعات مخرجاً أو مخدّراً يسكّن الانفعالات والتّوتّرات العصبيّة بصورةٍ مؤقّتةٍ، ولكنّها لا تحل أبداً الأزمة الآخذة بخناق النّاس! **وتتنقل الإشاعات من شخصٍ إلى آخر عن طريق العدوى الاجتماعيّة، فترى النّاس المساهمين في الحالة الصّنميّة في حركةٍ مستمرّةٍ من خلق الإشاعات، ونقلها، وترويجها، وتحاول**

**الإشاعات أن تعطي معانيَ مرغوباً فيها عن الحالة الصّنميّة، ولكنّها تكون مزيجاً من الرّغبة في تفسير الحالة، ومن طموح السّدنة، وأملها في المستقبل،** وبذلك تمهّد الطّريق لبذر مجموعةٍ جديدةٍ من الأوهام والأساطير، وفتحِ المجال أمام الطّامحين والصّائدين من الذين فاتهم أن يحصلوا على نصيبٍ من الأسلاب، والغنائم، والألقاب، والمنح، والعضويّات في اللّجان والشّركات.

وإذا ما تمّت عمليّة التّصفية والحركة الجديدة، عادت السّدنة من جديدٍ تصنع أوهاماً أخرى، وتروّج الإشاعات، لتبقيَ أناساً آخرين ينتظرون الدّورة الجديدة، وهكذا تستمرّ سلسلةٌ متواصلة الحلقات من أنواعٍ مختلفةٍ من السّدنة في الحالة الصّنميّة؛ وفي كلّ مرّةٍ يتبارى المحظوظون، ويتنافس الصّيّادون في خلق الوسائل المختلفة لاستعمال العصا السّحريّة، واستخدام الرّموز المقدّسة لتلويث الضّمائر، وتبليد الأذهان، لتجد زمراً أخرى من طلّاب الجاه، والشّهرة، واللّقب.

تتجلّى بلادة وغباوة من يحصلون على مراكزَ صنميّةً متزعزعةً في طبيعتها، في أنّهم يظنّون لأنفسهم الخلود والجمود، وأنّ كلّ شيءٍ سيصبح سكونيّاً، فتراهم يديرون ظهورهم عن أولئك الذين كانوا يشاركونهم في وجهة نظرهم في الحياة والأمور العامّة، وينفُضُون أيديهم من الموضوعات التي كانوا يثيرون الجدل والمناقشة حولها، ويسْتَجْدُون الآراء، فيقيمون الولائم والحفلات الطّقوسيّة ليظهروا أمام الملأ أنّهم حزمةٌ واحدةٌ في الخرافة والخديعة والإنتاج الهزيل، وأنّهم قوّةٌ أصحابها مستعدّون لبيع أنفسهم والانضواء تحت

لواء أيّ قرصانٍ يضمن لهم الرّبح والفائدة في عرض البحار، وهم يستخدمون هذه الأساليب في إرهاب الآخرين وتخويفهم، وفي إشاعة الأراجيف عن مراكزهم الصّنميّة في أنّها صارت قاب قوسين أو أدنى من الصّنم القادر على كلّ شيءٍ، إلّا أنّ الإرادة الصّنميّة لم تشأ إلّا أن تفسح المجال لبعضهم وتضيّق الخناق على بعضهم الآخر.

**تحاول السّدنة في وضع كهذا أن توفّق بين فكرتين متناقضتين هما: الحركة والسّكون، وذلك بأن تنظّم جبهةً يجمع بينها قاسمٌ مشتركٌ أعظم، يدور حول الفكرة القائلة: أنتظر دوري، وستأتي الساعة، فإنّ السّاعة آتيةٌ لا ريب فيها! على الرّغم من تنافر المصالح وتناقض الأوهام.** وتختلف درجة الحركة والتّبدّل في السّدنة باختلاف الأسس الوجوديّة للمجتمع، فإن كان المجتمع ديمقراطيّاً تكون الحركة واسعةً وسريعةً وعموديّةً، أي إنّ الأفراد ينتقلون من مكانةٍ إلى أخرى أعلى منها، لأنّه مجتمعٌ مفتوحٌ نسبيّاً، حيث يستطيع النّاس أن يتسلّقوا، وأن يتعقّبوا الحقيقة، ويقلّلوا بقدر الإمكان من مجال تدخّل الرّموز المقدّسة في حياة النّاس، ويزيلوا القيود، والحدود، والسّدود، والمحرّمات، والنّواهي المقدّسة التي تشتمل على التّفكير، والطّعام، واللّباس، والحركة، والسّكون.

وإذا كان المجتمع سكونيّاً، واستقرت فيه السّلطة الصّنميّة وضربت حولها نطاقاً من السّدنة، وجمدت على أوهامها وأساطيرها، ووقفت في وجه كلّ تلقيحٍ أو إخصاب لمفهوماتها، تنقطع الحركة العموديّة في المجتمع، فتظهر المكانات الاجتماعيّة، وتثبت المفهومات؛ وخير مثالٍ على ذلك المجتمع

الأوربيّ في العصور الوسطى، والنّظام الطّائفيّ في الهند، والمجتمعات الدّكتاتوريّة، وإذا حدث تبدّل قسريٌّ باستعمال العنف أو القوّة، أو نتج تطوّرٌ تدريجيٌّ في السّدنة، وأزيحت منها السّلطة والقدسيّة، فإنّها تغيّر أوهامها، وتختار خرافةً جديدةً تضع فيها بعضاً من الفِكَر الخادعة المضلّلة، بغية أن تبعث الحياة في صفوفها، وتكون أقربَ إلى إدراك بعضٍ من العناصر الجديدة.

ولو فرضنا جدلاً أنّ المجتمع قد يكون مقفلاً وسكونيّاً، لا يؤمن بالحركة والتّبدّل، وأنّ الأصنام صارت أمراً مسلّماً به، وطبيعيّاً، وضروريّاً، كالهواء، والماء، والطّعام، والجنس بالنّسبة إلى الإنسان، فلابدّ من أن يأتي اليوم الذي تتزعزع فيه الأصنام، حين يستولي الرّعب على النّاس ويبلغ التّذمّر والسّخط أقصاهما، ويتمنّى كلّ فردٍ دنوّ السّاعة وظهور (البطل) المصلح، الذي ينبثق من صفوف المحرومين ذوي الطّوبى، فتتركّز حول شخصيّته آمال النّاس ومطامحهم، فيجد كلّ واحدٍ أنّ من الواجب والسّعادة التّضحية في سبيله والتّفاني من أجل تحقيق طوباه؛ حيث يستطيع هذا البطل وحده أن يكسر حدود المجتمع المُغلق وأسواره، فيمسك بيده أوّل فأسٍ يكسر بها رؤوس الأصنام، ويصدر أوامره بالقضاء على السّدنة التي استغلّت النّاس بأوهامها وخرافاتها، ليؤسّس للنّاس أوهاماً وخرافاتٍ جديدةً.

**لا يخضع ظهور (البطل) إلى العقل والمنطق والاستنتاج والاستمراريّة في التاريخ! ويلغي (البطل) كلَّ الرّموز التي كان النّاس يقدّسونها، ويبدع رموزاً جديدةً يستمدّها من الواقع الجديد، وما يلبث وقتاً طويلاً حتّى تجتمع حول**

**سدنةٌ جديدةٌ تنشر الأوهام والأساطير لتخدع النّاس وتضلّلهم.** وإذا كان الصّوت الذي يدوّي في ضمائر السّدنة ينبعث من الحالة الاجتماعيّة، وإذا كانت الحالة في تبدّل وتغيّر مستمرّين، فمن الضّروريّ أن تتبدل نبرات، وأنغام ذلك الصّوت، وعذوبتُه، وخشونته. ولقد كان للسّدنة في العصور الوسطى والعصور المظلمة صوتٌ واحدٌ ذو نبرةٍ ونغمةٍ واحدةٍ لأنّه منبعثٌ من الآلهة، ومن الحقائق المطلقة غيرِ القابلة للجدل أو المناقشة، ومن الأوهام القائلة: إنّ طبيعة الإنسان شرّيرةٌ مليئةٌ بالذّنوب، فعلى الإنسان أن يختار أحد الصّوتين: صوت الله العذب، صوت الكنيسة والنّظام، أو صوت الشّيطان والشّرّ، صوت الفلاسفة وأحرار الفكر الذين كانوا يناقشون صحّة هذا الادّعاء: لقد كان الله في هذه المدّة شديد العقاب، صارماً، يستعمل أقسى العقوبات. ولم يمرّ وقتٌ طويلٌ حتّى تبدّلت الحالة، فصار الله أباً اجتماعيّاً، رؤوفاً، رحيماً، يأخذ بيد الإنسان نحو الصّراط المستقيم.

تتعيّن حدود السّدنة بحدود وعي الإنسان بالسّدنة ذاتها وبتأريخها، وبعلاقاته الواقعيّة مع بعضٍ من أفرادها، لأنّه بمعرفتنا لتأريخها، وتكوينها، ومصالحها، واختياراتها، نستطيع أن نحصل على كثيرٍ من المعلومات التي تساعدنا في فهم الدّور الذي تقوم به السّدنة، وفي المؤامرات والدّسائس التي تدبّرها من أجل التّنكيل، والإيقاع بالأبرياء، أو الذين لا يؤمنون بقدسيّة الصّنم الذي تعبده، وإذا ما تعقّدت علاقات السّدنة، واشتبكت بالنّظام القائم، فإنّها تصبح أكثرَ وعياً بمكانتها الاجتماعيّة.

والمجتمع الذي تكثر فيه امتيازات السّدنة وتزداد صلاحيّاتهم، وسيطرتهم تكون الأصنام والأوهام، والخرافات مصدراً للسّيطرة.

**لا تشعر السّدنة بوخز الضّمير، لأنّها لا تؤمن بقيمٍ خُلُقيّةٍ خارجةٍ عن عامِلَيْ الزّمان والمكان، ساميةٍ متفوّقةٍ، وإنّما تعدّ السّلوك أداةً للتّكيّف لوضعيّةٍ متحرّكةٍ ومتبدّلةٍ، ومن المسلّم به أنّ التّوقّعات التي تنتظرها السّدنة من أعضائها، هي التي توجّه سلوك النّاس الآخرين، فتعدّ كلّ مناقشةٍ أو إبداءِ رأيٍ خروجاً عن المألوف والمعقول!** ولقد كوّنت السّدنة خميرةً في المجتمع، تحدّد مجال الخبرة الاجتماعيّة، وصارت الخميرة نواةً لمقاومة كلّ تبدّلٍ في المجتمع، وصار بإمكان السّدنة أن تعرف حالات الحياة المختلفة التي يواجهها النّاس، وأن تضع مقاييس للسّلوك وللحياة؛ وقد أنكرت السّدنة أنّ التّعاريف التي تستخدمها لوصف الحالات الاجتماعيّة تتناقض مع رغبات الكثيرين من النّاس، وتحول دون تحقيق آمالهم وآمانيهم، وبذلك فسحت المجال لظهور الإشاعات والأراجيف التي ينشرها النّاس لتفسير الحالة القلقة المؤلمة، التي تتعلّق بدنوّ السّاعة التي تتخلّى فيها السّدنة عن مناصبها وامتيازاتها، ويختلف النّاس كذلك في الاستجابة لهذه الأراجيف، كلٌّ بحسب مصلحته، والعوامل التي تدعو إلى قلقه.

تمتلك السّدنة بعضاً من المؤسّسات الاجتماعيّة، وتؤجّر بعضاً من الفئات لتجريد بعضٍ من الموضوعات من معانيها، أو أن تضيف معانيَ جديدةً إلى موضوعاتٍ قديمةٍ بهدف التّشويه والتّحريف.

إنّ النّزاع بين سدنة الأصنام، هو نزاعٌ بين حالاتٍ اجتماعيّةٍ ماديّةٍ مختلفةٍ، وبين أوهامٍ وأفكارٍ تعبّر عن تلك الحالات، إذ تهاجم الأوهام الجديدة الأوهام البالية الخاوية، حتّى تزيد من ضغطها وقسرها، لتبرهن على إمكانيّاتها وحيويّتها. وممّا لا ريب فيه أنّ استمرار هذا النّزاع يحقّق النّمو المتكامل للتّراث الحضاريّ، إذ يظهر في حالةٍ معيّنةٍ بعضٌ من الأوهام، فتحتضنها سدنةٌ معيّنةٌ، فتمكث مدّةً من الزّمن، لا تلبث أن تفقد حيويّتها بظهور حالةٍ جديدةٍ، تحتاج إلى خرافةٍ جديدةٍ.

# الفصل الخامس

# الأصنام والإنتاج العقليّ

استعرضنا بإيجازٍ كيف أنّ طبيعة الإنسان من جهةٍ، والنّظام الاجتماعيّ من جهةٍ ثانيةٍ، يعملان سويّةً على خلق الأصنام والأوهام، وأنّهما عاملان أساسيّان لا ينفصل أحدهما عن الآخر، فهما توأمان يستلزم انبثاق الأوّل وجودَ الثّاني، ولكن نودّ أن نعرف خصائص الصّلة الموجودةِ بين الإنتاج العقليّ، وبين النّظام الاجتماعيّ، أو الأسس الوجوديّة.

يكاد علماء الاجتماع يُجمعون الرّأي على نقطةٍ جوهريّةٍ هي أنّ لكلّ وهْمٍ أو صنمٍ أو أسطورةٍ أو خرافةٍ بعضاً من الأسس أو القواعد الوجوديّة، فقد يدّعي بعضهم، أنّ علاقات الإنتاج هي الأسس الواقعيّة والحقيقيّة لكلّ ما ينبثق من أوهامٍ وفِكَرٍ، وحجتهم في ذلك أنّ الظّروف المادّيّة تقرّر مضامين الأوهام والفِكَرِ من حيث شكلُها وتوجيهُها، وترفض الفكرة القائلة: إنّ وعي النّاس ووجدانهم هو الذي يقرّر أو يصمّم وجودهم، ولكن تصرّ على أنّ وجودهم الاجتماعيّ، هو الذي يقرّر وعيهم ووجدانهم، ويؤكّد هؤلاء على أنّ للأوهام والفِكَرِ وظائفَ معيّنةً تقوم بها في المجتمع، أي إنّهم يُرجعون الأوهام والفِكَر إلى قواعدها الاجتماعيّة، ولكنّهم لا ينكرون أثر العوامل الأخرى، بل يأخذون من الظّروف المادّيّة نقطة بدءٍ في البحث والتّحليل والتّفسير. فمن

السّهولة، بحسب وجهة النّظر هذه، أن نصنّف الأوهام والآراء بعد معرفة الظّروف المادّيّة، بكلّ ما تتضمّنه من منازعاتٍ، ومطامحَ، ومخاوفَ، وإمكانياتٍ موضوعيّةٍ.

ومن الملحوظ أنّ بعضاً من الفئات الاجتماعيّة أقدر من الفئات الأخرى في تصميم الإنتاج العقليّ، بسبب ما تتمتّع به الفئات الأولى من سلطةٍ وقدسيّةٍ، وعلى كلّ حالٍ فإنّ الصّلة بين الأوهام والأصنام وتكوين المجتمع، تُوصَف بأحد هذه الأوصاف: التّصميم، أو الاتّصال، أو الانعكاس، أو الاعتماد.

**ونعني بالتّصميم الجبريّة أو الحتميّة، أي إنّ الظّروف المادّيّة، الاجتماعيّة، هي التي تقرّر نوع الإنتاج الفكريّ وشكلَه، ومضمونَه، واتّجاهه. مثال ذلك الجبريّة المادّيّة، والجبريّة الجغرافيّة، والجبريّة الدّينيّة، وغيرها من الجبريّات أو الحتميّات، وبمعنىً آخر إنّ الحوادث الاجتماعيّة، والتّاريخيّة مُسَيّرةٌ بموجب قوانينَ حديديّةٍ لا يمكن الخروج عليها أو الشّطط عنها!. أمّا الاتّصال فنعني به وجود علاقةٍ بين الظّروف المادّيّة الاجتماعيّة، وبين الأوهام والفِكَر،** وليس من الضّروريّ أن تكون علاقة السّبب بالنّتيجة، وقد تكون كذلك علاقةً سلبيّةٍ، يُرمَز لها عادةً بالرّمز (-) أو علاقةً إيجابيّةً، يُرمز لها بـ (+)، فالعلاقة تقدّر من الصّفر حتّى المئة مثلاً. ونعني بالانعكاس عدّ الإنتاج العقليّ انعكاساً مجرّداً للوضع المادّيّ الاجتماعيّ، أي إنّنا نعدّ الحالة مجموعةً من المنبّهات التي تثير في النّاس أنواعاً مختلفةً، أو متشابهةً من الإرجاع والانعكاس، والمثل على ذلك،

أن نضيء نورَ مصباحٍ شديداً أمام عيني إنسانٍ فيغمضهما، أو أن نقرّب النّار من أصبع أحدهم فيبعدها. ونعني بالاعتماد الاتّكال المتبادَل بين عوائلَ مختلفةٍ، أي وجودَ علائقَ متشابكةٍ بين الحالة المادّيّة الاجتماعيّة، وبين الإنتاج الفكريّ.

والحقيقة هي أنّها لا توجد حتميّةٌ أو جبريّةٌ على الأوهام، والفِكَر، والأساطير من قبل الظّروف المادّيّة الاجتماعيّة، وإنّما هناك ميْلٌ محدودٌ، وإنّ معرفة الظّروف المادّيّة الاجتماعيّة، تساعد على التّنبّؤ عن طبيعة الأوهام والفِكَرِ التي تمارس نفوذاً أو تأثيراً مسيطراً في نوعٍ من التّوجيه.

**يصنع النّاس أوهامهم وأصنامهم بهدف أن يعيشوا متكيّفين مع حالةٍ اجتماعيّةٍ تكوّنت في الماضي، ومرّت في مُددٍ ومراحلَ من التّطوّر.** وتلعب الأوهام والأصنام دوراً مهمّاً في الاستحواذ على ضمائر النّاس ووجداناتهم، ولهذا تنتخب الإنتاج العقليّ الذي يناسبها ولا يتعارض معها، ولا يؤثّر في خلق القلق والاضطراب. فإن ظهرت أفكارٌ وأوهامٌ لا تنسجم مع التّكوين المادّيّ الاجتماعيّ للسّلطة والقدسيّة، فإنّها تُرفَض ويُضرب عرضُ الحائط، وذلك من أجل تدعيم الأوهام والخرافات التي تعبّر عن الواقع الفعليّ للسّلطة؛ فمن الضّروريّ إذن الإحاطة بتلك الظّروف المادّيّة الاجتماعيّة بهدف تعيين المصدر الذي انفجرت منه تلك الأوهام والأصنام، ومهما يكن الأمر، فليس إكراه الظّروف المادّيّة الاجتماعيّة سبباً أو عاملاً مقرّراً للإنتاج العقليّ.

تبدو العلاقة بين الأوهام والأساطير وبين العوامل الوجوديّة للفيلسوف "شيلر" واضحةً وجليّةً، فالعوامل الوجوديّة قادرةٌ على تحديدها واختيارها حتّى لا تجد تعبيراً لها في الواقع الاجتماعيّ. أو بمعنىً آخر إنّ العوامل الوجوديّة لا تخلق، ولا تكوّن، ولا تصمّم مضامين الأوهام، والفِكَر، ولا تقرّر محتوياتِها وشكلَها وتوجيهَها، ولكنّها تتدّخل في إمكان التّعبير عنها أو كبتها، وبذلك تَحُول العوامل الوجوديّة دون التّعبير عنها، أو تمهّد الطّريق لخروجها إلى حيّز الواقع. ولم يعترف "شيلر" بأسبقيّة عاملٍ على عاملٍ آخر، كالعامل الاقتصاديّ، أو السّياسيّ، أو الدّينيّ، وإنّما أكّد على أنّ جميعها تتأثّر بدوافع السّدنة، وبمقدرتها على توجيه الأوهام والفِكَرِ، والسّيطرة عليها، وأخيراً تتّصل بالنّظام الخلقيّ السّائد وبالقيم الحاكمة؛ فيمكن القول إذاً: إنّ الاتّصال بين الانتماء إلى فئةٍ اجتماعيّةٍ وبين الأوهام والأساطير السّياسيّة واقعيٌّ وصحيحٌ!. ولنأخذ مثالاً سهلاً عن الاقتصاديّ الإنكليزيّ المشهور "آدم سمث" الذي يرجع إليه الفضل في وضع المبادئ العامّة لمجتمعٍ تجاريٍّ كان في طريق الانتقال والتّحوّل إلى الرّأسماليّة الصّناعيّة.

**لقد عدّ "آدم سمث" العمل المصدرَ الوحيد لكلّ الثّروات، وقد استهلّ كتابه (ثروة الأمم) بالجملة التّالية: (يخلق العمل السّنويّ لكلّ أمّةٍ القواعد الأساسيّة التي تقدّم لها كلّ الموضوعات الضّروريّة والمفيدة). ولهذا زالت المكانة التي كان الذّهب والفضّة يتمتّعان بها في (العصر التّجاريّ الماركيتاليّ) بسبب التّأكيد على الأرض وعلى العمل الزّراعيّ، وأكّد (سمث) على تقسيم**

العمل، وعلى استثمار رأس المال، لأنّه جمع بين مفهوم رأس المال، ومفهوم وسائل الإنتاج، ولكنّه قسم العمل إلى قسمين: (منتجٍ وغير منتجٍ). فالعمل المنتج، هو الذي يظهر على شكل بضائعَ قابلةٍ للبيع، والعملُ غير المنتج، هو الذي يكون على شكل خدماتٍ تتلاشى، وتنتهي في لحظة إنجازها، وضرب أمثلةً على ذلك الخدمات التي يقوم بها الحكّام، والموظّفون، والجنود، والقساوسة، والأدباء، والممثّلون، والمغَنّون، والموسيقيّون، وغيرهم.

يقدّم العامل المنتج فائدةً وربحاً لمن يستخدمه، وبذلك وضع "سمث" مقياس الفائدة للتّمييز بين نوعي العمل، وفرّق بين قيمة الاستعمال وقيمة التّبادل، وقال: إنّ العمل هو الذي يقرّر ويصمّم القيمة، وهو المقياس الواقعيّ لتحديد قيمة التّبادل. وقد دعا "سمث" إلى الاقتصاد الحرّ، وأكّد على وجود نظامٍ طبيعيٍّ يتفوّق في قوّته ونفوذه على كلّ ما ينتج من تدخّل الدّولة في الحياة الاقتصاديّة، وكان "سمث" يدافع عن نظامٍ صنعته العناية الإلهيّة، ولهذا نعدّ مناقشته ميتافيزيقيّة، و قد قدّم فكرة انسجام المصالح وتوافقها في المجتمع، وخاصّةً مصالح الطّبقات الاجتماعيّة المختلفة؛ وعندما عدّ العملَ مصدراً عامّاً للثّروة، كان تفكيره يشير إلى تحوّلٍ عميقٍ في التّراكيب الاقتصاديّة للمجتمع.

وفي الوقت الذي أصدر "سمث" كتابه (ثروة الأمم) كانت الزّراعة لا تلعب إلّا دوراً ثانويّاً في الحياة الاقتصاديّة إذا ما قِيست بالصّناعة، فقد انهار النّظام الإقطاعيّ بسبب ظهور الإنتاج الرّأسماليّ، واتّصف العمل بكونه صناعيّاً، يخضع إلى قوانين السّوق. وتميّزت المدّة التي عاش فيها بالتّعايش ما بين

**المجتمع التّجاريّ، والمجتمع الرّأسماليّ، ويظهر هذا التّعايش واضحاً في نظرته للقيمة، وللعمل المنتج اللّذَين حاول بهما أن يجمع بين مقياسَيْ المجتمع التّجاريّ، والمجتمع الصّناعيّ لتلك المرحلة.** فقال: إنّ القيمة تعيّنها ظروف الإنتاج (الاقتصاد التّجاريّ) وإنّها تستمدّ مقدارها وكمّيّتها من (العمل والأرض ورأس المال) أي (الإنتاج الرّأسماليّ)،ونجد هنا ثنائيّةً واضحةً في نظريّة قيمة العمل، وليس من الصّحيح أن نفسّر ذلك بجبن وخوفِ "سمث" من قول الحقيقة كما يدّعي المؤلّفان "رست" و"جيد" في كتابهما **(تاريخ المذاهب الاقتصاديّة).**

نستنتج بذلك قسماً كبيراً من التّفكير، والمعرفة، الذي لا يمكن إدراكه بصورةٍ صحيحةٍ ومضبوطةٍ، وكذلك إذا لم نلحظ علاقته بحقائق الوجود، أو بالظّروف المادّيّة الاجتماعيّة، وتكمن الأسس الوجوديّة فيما وراء الأوهام، والأساطير، والفِكَرِ، ولا يمكن عدّ الفِكَرِ والآراء نتيجةً لوحي العباقرة وإلهامهم، بل إنّها تقع وراء تأمّلات العبقريّ، وتَبَصُّرِهِ الخبراتِ التّاريخيّةَ الجماعيّةَ التي يتبنَاها الفرد، ومن الضّروريّ الإشارة إلى وجود اتّجاهاتٍ مختلفةٍ ومتضاربةٍ في المجتمع، يتنازع بعضها مع بعضٍ، ولكلٍّ منها تفسير مختلفٌ عن الخبرة المشتركة، وإنّ المفتاح الوحيد لمعرفة سبب هذا التّنازع، لا يوجد في (الموضوع ذاته) ولكن في التّوقّعات، والأهداف، والدّوافع المختلفة التي تَظْهَرُ من الخبرة، **فإذا وجدنا نزاعاً قائماً بين توقّعاتٍ ودوافعِ الفئات الاجتماعيّة المختلفة، فليس من الصّحيح أبداً أن نحاول أن نبحث عن أسباب ذلك النّزاع**

**في التّوقّعات والدّوافع ذاتها، ولكن من الضّروريّ الرّجوع إلى المصالح الجماعيّة.** وخير مثالٍ على ذلك المدارس الفنيّة التي مرّت في مراحلَ تاريخيّةٍ معيّنةٍ، أو أن نحلّل تحليلاً صِرفاً بنيةَ الفكر وتركيبَه، لنقرّر متى وأين استطاع الفنّان أن يعرض نفسه بأسلوبٍ فنّيٍّ معيّنٍ، ولماذا قام بذلك؟ وكيف استوحى الفنّان أساليب فنّه من مدرسةٍ فنّيّةٍ خاصّةٍ؟!

ولنضربْ مثالاً عن الاتّجاهات العامّة لعلماء الاجتماع في كلٍّ من أوربّا وأميركا، لنرَ أوجه الشّبه والاختلاف بينهما، التي تكشف بكلّ وضوحٍ عن اختلاف الأسس الوجوديّة لكلّ فريقٍ منهما.

يحاول الكتّاب وعلماء الاجتماع الأوربيّون أن يتعقّبوا، وأن يتبيّنوا الأسس الوجوديّة للإنتاج العقليّ، وأن يبحثوا عن الطّرائق التي تتأثر بها الفِكَرُ، والآراء، والأساطير، وعلاقاتها جميعاً بالتّكوين الاجتماعيّ الذي تنبثق منه، لأنّ مركز الثّقل في هذه البحوث ملقىً على أنّ المجتمع، هو الذي يصمّم، ويقرّر الإنتاج العقليّ، أمّا علماء الاجتماع في أمريكا، فإنّهم يجعلون محور الأوهام يدور على العقائد الشّعبيّة الشّائعة والمألوفة، أي حول الرّأي، وليس حول الإنتاج العقليّ، وهذا الفرق ليس كبيراً كالفرق بين الأسود والأبيض، لأنّ الرّأي يعكس شيئاً من المعرفة والإنتاج العقليّ، وهو القسم المقبول اجتماعيّاً، والذي يمكن البرهنة على وجوده ببعضٍ من المقاييس.

قد ينمو الرّأي ويتطوّر فيصبح معرفةً، أو قد تنهار المعرفة وتنحلّ، فتصبح رأياً مجرّداً فقط، فإذا كان اهتمام الأميركيّين منصبّاً أوّلاً وقبل كلّ شيء على الرّأي العامّ، وعلى العقائد الشّعبيّة، والآراء الجماهيريّة، أو بما أصبح يُدعى (الحضارة الشّعبيّة) فإنّ اهتمام الأوربيّين يتركّز حول الأنظمة المعقّدة للمعرفة التي يُعاد تكوينها، وتتغيّر بنيتها وشكلها إذا وصلت إلى مرحلة الحضارة الشّعبيّة، **وإنّ هذا الاختلاف في مركز الاهتمام يثير فروقاً أخرى، منها أنّ الأوربيّين يدرسون دور النّخبة المثقّفة المختارة، ويدرس الأميركيّون الآراء الشّائعة التي تعتنقها الجماهير الشّعبيّة، وينصبّ اهتمام الأوربيّين على آراء الأقلّيّة ، أو الصّفوة المختارة التي تؤثّر في آراء الجماهير الشّعبيّة، بينما يكتفي الأميركيّون بدراسة آراء الجماهير وحدها.**

أثّرَ هذا الاختلاف في الغاية التي يسعى إليها كلّ فريقٍ، كجمع المعلومات، وتصنيفها، ووضع فرضيّاتٍ لتفسيرها، والتّأكّد من تلك الفرضيّات، وباختصار، يحاول الأوربيّ البحث في المعرفة، بينما يهدف الأميركيّ إلى جمع المعلومات "Informations" ويدرس الأميركيّ أجزاءً منعزلةً ومنفصلةً من الاستعلامات التي يحصل عليها من الجماهير، بينما يبحث الأوربيّ في التّكوين الكلّيّ للمعرفة التي يحصل عليها بدراسة النّخبة، أو الصّفوة أو الأقلّيّة، **فيؤكّد الأميركيّ على جمع المعلومات، بينما يؤكّد الأوربيّ على معرفة طبيعة التّكوين الاجتماعيّ الذي انبثقت منه المعرفة! ويؤكّد الأوربيّ على العلاقات المنطقيّة، بينما يؤكّد الثّاني على العلاقات الوظيفيّة.**

يهتمّ الأوربيّ بالآراء والمذاهب السّياسيّة بقدر ما تعينه على معرفة أنظمة التّفكير السّياسيّ ليطّلع على تركيبها وبنيتها، وليتأكّد من الصّلة الموجودة بين الفئات الاجتماعيّة والآراء والفِكَرِ، ويهتمّ الأميركيّ بمعرفة الفروق بين العقائد السّياسيّة، ليستطيع أن يصنّف النّاس وَفقاً لبعضٍ من المصطلحات والمسمّيات السّياسيّة، أو بالنّسبة لصنفٍ معيّنٍ يمكن البرهنة عليه، ورؤيتُه في فئةٍ اجتماعيّةٍ معيّنةٍ. فإذا كان الأوربيّ يحلّل الأوهام، والأساطير، والفِكَرَ التي تقوم عليها الحركات السّياسيّة، فإنّ الأميركيّ يستقصي آراء النّاخبين، وغير النّاخبين، فلكلٍّ منهما موضوعٌ خاصٌّ، ومشكلاتٌ، وتفسيراتٌ خاصّةٌ! فالأميركيّ يعرف ما يتكلّم عنه، وهو ليس بالشّيء الكثير، ولا يعرف الأوربيّ ما يتكلّم عنه، وهو شيءٌ كثيرٌ.

يأخذ الأوربيّ بنظر الاهتمام آراء الكاتب المعروف، إذا كان ذا شهرةٍ، ذائع الصّيت، كحقائقَ مسلّمٍ بها، أو إنّه يقبل بعضاً من القواعد العامّة التي تُوضع بشكلٍ موضوعيٍّ كنوعٍ من المعلومات التّجريبيّة، **فالأوروبيّ يضع العجلة قبل الحصان، ولكنّ الأميركيّ يضع العجلة ويُحضّرها، ويفتّش عن الحصان فلا يجده**؛ لقد ازداد اهتمام الأميركيّ في جمع المعلومات إلى درجة أنّه لا يكترث بالماضي التّاريخيّ، وهذا السّبب هو الذي دعا الأميركيّ إلى الاهتمام بمشكلاتٍ آنيّةٍ قصيرة الأمد.

يفضّل الأوربيّ دراسة التّطوّرات الفكريّة ذات الأمد الطّويل بما يتوافر لديه من معلوماتٍ، ونصوصٍ وأصولٍ تاريخيّةٍ، بينما يركّز الأوربيّجلّ انتباهه

على جمع كمّيّاتٍ وافرة من المعلومات، ليستطيع بعدها صوغ فرضيّاتٍ تعينه على معرفة الحقائق، وفي كثيرٍ من الأحايين، لا تصبح المشكلة وضعَ الحصان بعد العجلة، وإنّما عدمَ وجود العجلة، أي النّظرة لتلك المعلومات، فقد يحاول الحصان السّير، ولكن لا توجد خلفه عجلاتٌ ليجرّها.

يهتمّ الأوربيّ بالصّلة الموجودة بين الكتب التّاريخيّة، والفِكَرِ التي يحملها النّاس في الواقع، ويأخذ بها، وهي التي يعدّها الأميركيّ مشكلةً من المشكلات المهمّةِ التي تتطلّب بحثاً واستقصاءً؛ ولمّا كان من الصّعوبة بمكانٍ التّثبّت من البحوث التّاريخيّة، والتّأكد من صحّة ما يرويه المؤرّخون، فإنّ الأميركيّ اضطرّ إلى قبول دراسة الحاضر فقط. ويبحث الأوربيّ في المشكلات باستعمال التّأمّل والظّنّ والتّخمين، بينما يدعو الأميركيّ إلى اتّباع الطّرائق التّجريبيّة، ولهذا، فإنّ تمسّك الأميركيّ بالطّرائق العلميّة اضطره إلى ترك الحركات الفكريّة ذاتِ المدى الطّويل، وأثرها في التّبدّلات التي تحدث في التّراكيب الاجتماعيّة، بينما يقبل الأوربيّ انطباعات الكتاب المتعلّقة بالموضوعات الاجتماعيّة؛ فالأوربيّ يتخيّل الموضوعات ويتأمّل فيها، بينما ينظر الأميركيّ إليها ويلحظها، ويستقصي المشكلات ذات المدى القصير، بينما يتأمّل الأوربيّ في المواقف، والآراء ذات المدى الطّويل.

**. يختلف الأوربيّ عن الأميركيّ في مشكلة التّأكّد، والتّثبّت من صحّة المعلومات والملحوظات، ويحاول الأميركيّ أن يستعين بالإحصاء، وبطرائقَ أخرى ليتأكّد ممّا لديه من معلوماتٍ، ويفضّل الاشتغال بمشكلاتٍ يسيرةٍ يسهل**

**الكشف عن صحّتها، ولكنّه يغالي كثيراً في الاهتمام بالوسائل من دون أن يكوّن نظريّةً عن المعلومات التي حصل عليها! ويبدو للأوربيّ، أنّ ما وصل إليه الأميركيّ لا يُعدّ نصراً له من الوجهة العلميّة.**

هنالك سببٌ وجيهٌ لقيام كلّ هذه الفروق، و يرجع ذلك السّبب إلى أنّ العلماء كثيرو الاهتمام بمعرفة العوامل الاجتماعيّة التي تقرّر، وتصمّم آراء المثقّفين، ووجهات نظرهم، وتوضّح لماذا اعتنق المثقّفون تلك الآراءَ، وإلى أيّ مدىً يؤثّر المثقّفون في جماهير النّاس، ويكتفي الأوربيّ بأن يعدّ النّاس عاملاً مهمّاً في تكوين المثقّفين إذا ذَكَرَ المثقّفون أنفسُهم أهمّيّةَ ذلك، ويدرس الأوربيّ العناصر المكوّنة، والمقرّرة، أو المصمّمة للرّأي، أو الفكر، بينما يبحث الأميركيّ في النّتائج الاجتماعيّة والنّفسيّة لانتشار الرّأي وذيوعه، ويختصّ الأوّل في معرفة المصدر أو المنبع الذي انبثق عنه الرّأي، ويقتصر الثّاني على النّتيجة، فالأوربيّ يسأل كيف أصبحت بعضٌ من الفِكَرِ والأوهامِ شائعةً عند الجماهير، وأمّا الأميركيّ فيسأل كيف تؤثّر تلك الفِكَرُ والآراء في سلوك الجماهير.

بعد هذا العرض الموجز للفروق بين علماء الاجتماع في أوربّا وأميركا، ندرك لماذا أهمل الأوربيّ البحث عن جماهير النّاس، ولماذا اهتمّ الأمريكيّ بمعرفة مواقفهم وآرائهم، ويجدر بنا قبل أن ننهي البحث في المقارنة والموازنة، أن نسأل عن العوامل والأسباب التي دعت إلى كلّ هذه الاختلافات الفكريّة! فهل هي نتجت عن الأسس الوجوديّة؟.

هنالك أدلّةٌ واضحةٌ تؤيّد وجهة النّظر هذه.

يقول الأستاذ **"لازارفيلد"** العالم الاجتماعيّ الأميركيّ: إنّ البحوث الخاصّة بوسائل النّقد الفكريّ، تتطوّر كصدىً لمتطلّبات السّوق، لأنّ المنافسة شديدةٌ جدّاً على الإعلان والدّعاية لبعضٍ من المصنوعات والمنتوجات، التي تحتاج إلى التّأثير في عقول الجماهير (كالصّحافة والرّاديو والتّلفزيون). ولهذا تُنظّم الدّراسات والبحوث المختلفة لمعرفة مدى تأثير أو شدّة تأثير كلٍّ منها في توجّه الجماهير؛ أضف إلى ذلك الدّعاية المنظمة للبرامج والخطط العسكريّة التي تضعها الدّولة، ورغبتها في معرفة مدى قبولها أو رفضها من قبل الجماهير، حتّى يتسنّى لها تحمّل مسؤولية الحكم، فتستفيد من هذه البحوث.

تهتمّ البحوث من النّوع الأوّل، أي الخاصّة بالسّوق، بالكسب الماليّ للطّبقات الاجتماعيّة المختلفة، وذلك بهدف تنظيم الإعلانات والدّعاية التي تناسب حاجاتٍ ومقدار كسب كلّ طبقةٍ، وتتّصل اتّصالاً مباشراً بالعمر، والجنس، والتّعليم.

ولهذا تشابكت البحوث ذات المدى القصير بالبحوث ذات المدى الطّويل، وأدّت إلى الحصول على معلوماتٍ خاصّةٍ عمّا يُدعى بـ **(الوعي الكاذب)** حيث نرى فئاتٍ ذاتِ مكانةٍ اقتصاديّةٍ واطئةٍ، تحاول أن تعرّف نفسها بأيديولوجيّي الطّبقات الرّاقية! وكان من تأثير السّوق والخطط العسكريّة أن تعاونت الشّركات، وأرباب الأموال، والمؤسّسات التّجاريّة مع الحكومة،

لتقديم المساعدات الماليّة للقيام بمثل تلك البحوث التي تخدم مصالحها، لأنّ الجامعات لم تكن راغبةً بالقيام بمثل تلك المهمّات، وبكلمةٍ مختصَرَةٍ: اتّحدت الصّناعة والدّولة على نهج هذا السّبيل. ولكن من المشكوك فيه نجاحُ هاتين المؤسّستين في توافر الأجواء العلميّة، كما الحال في المختبرات الذّرّيّة التي تُصرف عليها الأموالُ الطّائلة؛ **فقد صرفت الولايات المتحدة الأميركيّة على بحوث الطّاقة الذّرّيّة ١٦٦ مليون دولاراً سنة ١٩٣٠، وأخذت تصرف سنويّاً ٦٠٠ مليون دولاراً في السّنين الواقعة ما بين سنة ١٩٤٠-١٩٤٥. وكانت تصرف الحكومة الاتّحاديّة في سنة ١٩٤٠ ما يقرب من ١٩٪ ممّا يُصرف على كلّ البحوث، وتصرف على الصّناعة ٦٨٪ والجامعات والمعاهد الأخرى ١٣٪. وخلال سنيّ الحرب، كانت الحكومة الاتّحاديّة تصرف ٨٣٪ على البحوث، تاركةً ٠,١٣٪ فقط للصّناعة، و ٠,٤٪ للجامعات! وبلغ ما يُصرف على البحث سنة ١٩٤٧ في كلّ الولايات المتحدة نحو ١,١٦٠,٠٠٠,٠٠٠ دولاراً منها ١١٠ مليون دولارٍ، كانت تُصرف على البحوث النّظريّة، و ١,٠٥٠,٠٠٠,٠٠٠ على البحوث التّطبيقيّة. وفي سنة ١٩٤٧ كانت الحكومة الاتّحاديّة تدير نحو ٥٣٪ من كلّ ما يُصرف على البحث و ٠,٤٣٪ من مجموعة ٠,٥٣٪ كانت تحت إشراف المؤسّسات العسكريّة، وكانت الصّناعة تشرف على إدارة ٣٨٪ من كلّ البحوث في أميركا، بينما اقتصرت الجامعات والمعاهد الأخرى على ٠,٧٪، وهكذا فإنّ ٠,٨١٪ من كلّ المبالغ التي تُصرف مباشرةً على البحوث، تخصّصها للمؤسّسات العسكريّة، والصّناعيّة التي تفرض سرّيّةً على العمل.**

يختلف الأوربيّ عن الأميركيّ في اختيار الموضوع، وفي تعريف المشكلة، وفي المفهومات والفرضيّات التي تُستخدم في جمع المعلومات، وتصنيفها، وتحليلها، وتفسيرها، ويشتغل الأوربيّون عادةً فُرادى، ويحاولون أن يقصروا جهودهم على جمع المعلومات من المكتبات، وقد يعاونهم في ذلك مساعدون يعملون باتّصالٍ وثيقٍ معهم، وتحت إرشادهم؛ بينما يشتغل الأميركيّون على شكل فريقٍ من الباحثين، أو مجموعةٍ من الفِرَق بقدر ما يستوعب التّنظيم الاجتماعيّ للبحث. ولم يشغل الأوربيّ بالهب المشكلة المنهجيّة المتعلّقة بطرائق البحث، ولهذا فمن الصّعب أن يتوصّل عددٌ من العلماء الأوربيّين إلى النّتائج ذاتها، وإنّ طبيعة عمل الأوربيّ تضطرّه للعكوف في المكتبات، وإنّ تنظيم حالة عمله، لا يحثّه على الاهتمام بمشكلة التّأكّد من صحّة الملحوظات التي جمعها، بينما اهتمام الأميركيّ في جمع المعلومات اضطرّه إلى أن يركّز انتباهه حول مشكلة صحّة المعلومات وخطئها، تلك المعلومات الهائلة التي تجمّعت لديه من الفِرَقِ المُدرَّبَة لهذا الهدف.

**يلعب عنصر المنافسة دوراً مهمّاً في حثّ الجامعات والمعاهد العلميّة، لأنّ تشكّل فرقاً للعمل التعاونيّ في البحوث العلميّة والاجتماعيّة، ولمّا كان الباحثون الاجتماعيّون يهتمّون بالآليّة المستعمَلَة للإحصاء، والتي تشتغل ليل نهار، فلابدّ من وجود فِرَقٍ من العلماء لا تعرف طعم الرّاحة، حتّى إنّ تلك الفرق تصبح رقيقاً للآلة، وللشّخص الذي يرأس العمل! وعلى الرّغم من ضخامة هذا التّنظيم، فإنّ مشكلة صحّة المعلومات وخطئها لا زالت قائمةً؛ وإذا ما تطلّعنا**

**إلى المستقبل، نراه مظلماً بالنّسبة للعلماء الذين يرغبون في القيام بتجاربَ ومشروعاتٍ فرديّةٍ مستقلّةٍ.**

يبذل علماء الاجتماع جهوداً كبيرةً في سبيل إقناع (السّاسة) في الحكومة و (المديرين) في الصّناعة بأهمّيّة بحوثهم، وبضرورة دعمها، وفي مثل هذه الظّروف، لم يروا من المناسب أن يعلنوا عن شكّهم، أوعدم ثقتهم بعلم الاجتماع، وذلك خوفاً من أن يفقدوا المساعدات التي ينشدونها، وصار بعضٌ من الموظّفين في الحكومة والصّناعة، يقرّرون أهمّيّة البحوث، وموضوعاتها، وكفاءة الباحث! فإذا ما تعارضت كلّ هذه الخصائص مع أهدافهم، تُرفض البحوثُ، ويُوصف الباحث بأنّه غير علميٌّ. ويروّج علماء الاجتماع في أميركا الفكرة القائلة بوجود سلوكٍ موحّدٍ في الظّاهرات الاجتماعيّة، وأنّه يمكن الكشف عن ذلك السّلوك، وافترضوا أن يكون على شكل ارتباطاتٍ وعلاقاتٍ، وادّعوا أنّ معرفة هذه الارتباطات ستمكّننا من السّيطرة على قوى المجتمع، **ويرغب علماء الاجتماع في أن يروا قيمة العلم مقبولةً من قِبَلِ الجميع على أساس أنّ الزّيادة في المعرفة دليلٌ على زيادة قوّة الإنسان في المجتمع الذي يعيش فيه ويبدو المجتمع لهم كشيءٍ يجب تسخيره والسيطرة عليه.** وهذا ما دعا بعضاً من علماء الاجتماع لأن يطالبوا بالحصول على امتياز تأسيس السّيطرة على قوى المجتمع، وأن يحصروا المسؤولّية فيهم، وأن يؤكّدوا على عدم كفاءة الطّرائق التّقليديّة في حلّ المشكلات الخطيرة التي تهدّد حياة النّاس، كالمناقشات البرلمانيّة، والضّغط السّياسيّ، وغيرهما من الطّرائق.

إنّ هذه الموازنة تُظهر بكلّ وضوحٍ الفروق الأساسيّة بين طبيعة البحوث الاجتماعيّة في أوروبا وأميركا، التي ترجع في الواقع إلى اختلاف التّكوين الاجتماعيّ لكلِّ مجتمعٍ، فعلماء الاجتماع في أميركا يحاولون إقناع الذين بأيديهم الأمر، بضرورة التّمتّع بسلطةٍ عظيمةٍ بهدف إدارة التّنظيم الاجتماعيّ، وضمان نجاح المشروعات الاجتماعيّة، وبذلك يجهّز علماء الاجتماع المعرفة الضّروريّة التي يراها ولاة الأمور، بهدف الحصول على الجوائز والمكافآت.

إنّ حالاً كهذا لا يؤدّي أبداً إلى النّقد الذّاتيّ، وإلى وضع الانتاج العقليّ على طاولة التّشريح بهدف التّأكّد، والتّثبّت منه، وإنّما يؤدّي إلى عبادة الأصنام الخطيرة التي يقرنها بعضٌ من علماء الاجتماع بتقدّم السّيطرة المقصودة على الشّؤون البشريّة. ولكن ليس من السّهل أبداً أن يواكب علماء الاجتماع التّطوّرات التي تنتج من تبدّل الحالات الاجتماعيّة وحركتها، وليس من المعقول أن يربطوا مصير المعرفة الاجتماعيّة بمصير الأصنام التي تتمتّع بالسّلطة والقدسيّة. **وفي وسط هذا المأزق الحرج، انقسم علماء الاجتماع إلى فريقين:**

**فريقٌ يرى ضرورة تسخير المعرفة في سبيل إقناع السّلطة بأنّهم يستحقّون الدعم والمساعدة، بدعوى (إنّ المعرفة في خدمة الأصنام) وأنّهم يقنعون أنفسهم، بأنّ البحوث التي تنال دعماً هي التي تتّفق والبحثَ العلميّ. وفريقٌ آخرَ يحاول أن يسمو بالمعرفة الاجتماعيّة عن هذا التّبدّل، مؤكّدين على أنّ المعرفة**

للمعرفة، وليست لخدمة الأصنام، وأنّ في المجتمع قوانين عامّةً تسيّره، ويجب على الباحثين الكشفُ عنها!.

ينصّ العالم الاجتماعيّ "ماكس فيبر" على أنّ علم الاجتماع يخدم ثلاثة أهدافٍ هي: السّيطرة على المجتمع، وإعداد علماء الاجتماع للمستقبل، والعمل على الصّفاء العقليّ. فالقول بالسّيطرة مبالغٌ فيه، ولا يمكن أن يتحقّق، فلم يبقَ إلّا الهدفان الأخيران. وقد عنى "فيبر" بالصّفاء العقليّ خبرةَ الفرد ودربَتَه اللّتين تساعدانه في اختيار الاحتمال النّاجح على ضوء معرفة الظّروف الواقعيّة، ولا يمكن الوصول إلى (الصّفاء العقليّ) إلّا باستعمال الطّريقة العلميّة، وأكّد على أنّ تلك الطّريقة في متناول الإقليم فقط. وما دام الأمر كذلك، فإنّ فريقاً من النّاس سيتمتّع ببعضٍ من الامتيازات التي قد تستغل بقيّةَ المواطنين من جهةٍ، وأنّ ذلك سيضطرّهم إلى ضرورة إقناع رجال السّياسة والجمهور بأهميّة العلوم الاجتماعيّة، من جهةٍ أخرى، وبهذا يتعرّض العالم الاجتماعيّ لخطر تسليم القيادة والتّوجيه في البحوث إلى مصالح أولئك الذين في مركزٍ يكافئونه على عمله.

يواجه علماءُ الاجتماع مشكلةً خطيرةً، تتلخّص في كيف يستطيعون أن يقوموا ببحوثٍ اجتماعيّةٍ مهمّةٍ إذا لم يكن لديهم المال الكافي لتمويل تلك البحوث، ولم يكن رجال السّياسة في عونهم؟ لأنّ الحدود والموانع التي قد يصادفها الباحثون كثيرةٌ، وتحُول دون حرّيّة البحث والمناقشة! أمّا إذا وضع علماء الاجتماع أنفسهم في خدمة السّلطة والصّناعة، فإنّ بحوثهم تهدف إلى

الدّعاية والإعلان، ولا شيء يحطّ من كرامة العلم والعلماء أكثرُ من النّزول لهذا الحضيض.

ولكن لا تُقاس أهمّيّة المعرفة الاجتماعيّة بمقدار فائدتها للأصنام، لأنّ مثل هذه المعرفةَ معلوماتٌ للمجاملة، ويُقصد منها الدّعاية، فالمعرفة العلميّة. كما قلنا مسبّقاً. تكون خطرةً ومؤذيةً في بعضٍ من الأحيان. أضف إلى ذلك، أنّ وجود الأصنام، واستمرار قدسيّتها وسلطتِها، يتطلّبان القيام بمشروعاتٍ، أو بحوثٍ ذات نفعٍ مباشرٍ، وإلى مدىً قصيرٍ، ولكنّ البحوث ذاتَ المدى الطّويل التي تتعلّق بالتّطوّر العقليّ، وبازدهار المعرفة الإنسانيّة، ليست مهمّةً بالنّسبة للأصنام، ولهذا فهي لا تنال دعمهم أو مساعدتهم، لأنّها بحوثٌ تتوخّى نموّ المعرفة فقط، وليس خدمة هدفٍ مباشرٍ وقصيرٍ.

يعيش علماء الاجتماع في عالمٍ ممزّقٍ إلى فئاتٍ متنازعةٍ، ومنقسمٍ إلى أجزاءَ متعارضةٍ، بحسب الرّسّ، واللّغة، والعنصر، والدّين، والطّائفة، والقبيلة، والعائلة، فيجب أن تكون مؤسّساتهم العلميّة مستقلةً، وبعيدةً عن كلّ تحيّزٍ وأنانيّة؛ وإنّ من واجب تلك المؤسّسات العلميّة أن تزيد في إنماء الدّور البشريّ، وألّا تبغي الحصول على فائدةٍ عارضةٍ ومباشرةٍ.

لقد قدّمنا أمثلةً عن أثر تباين أسس الظّروف المادّيّة الاجتماعيّة في اختلاف الإنتاج العقليّ، كالفِكَرِ، والأوهام، والخرافات، وربّما يجدر بنا أن نعرف ماذا نعني بالظّروف المادّيّة الاجتماعيّة؟ تلك الظّروف التي يجب

معرفتها بهدف تعيين طبيعة الإنتاج العقليّ. فنحن نعني بها (الفئة الاجتماعيّة) والحالة التي تمرّ بها، ويمكن تعريف حالة الفئة في المجتمع بالسّلطة التي تتمتّع بها، وبالقدسيّة التي تضيفها على رموزها وامتيازاتها، وبالقوّة الاقتصاديّة، وهوما يمكن عرضه في العبارة التّالية: (كن ذا سلطةٍ وقدسيّةٍ أو لا تكن، وكن ذا ثروةٍ أو لا تكن) ولهذا تحاول كلّ فئةٍ أن تستأثر بالسّلطة والقدسيّة! فحالة النّبلاء في العصور الوسطى، تتّصل اتّصالاً وثيقاً بالفِكَرِ المحافظة التي تمنع حركة المجتمع وتَبَدُّلَه، فتُعرَف الفئة الاجتماعيّة إذاً في حدود القوّة السّياسيّة والاقتصاديّة.

**ويجب ألّا نقف عند حدود تأسيس الصّلة بين الفكر والفئة الاجتماعيّة، بل من الضّروريّ أن نفسّر تلك الصّلة وأن نشرحها؛ فحين تدافع السّدنة عن حالةٍ خاصّةٍ، فعلينا أن نفسّر ذلك الدّفاع على أساس المصالح والامتيازات، فمن الممكن أن يُترجِمَ الوهمُ أو الخرافةُ مصالح الفئة، فيصبح الوهم من الوجهة الاستراتيجيّة سلاحاً للهجوم والدّفاع.**

# الفصل السّادس

# بين الواقعيّة والمثاليّة

وصلنا إلى أنّ وجود الأصنام عاملٌ أساسيٌّ في تجزئة المجتمع إلى مقاطعَ متنازعةٍ، وفي صنع الأوهام والأساطير، والخرافات التي تعمل على إخفاء الحالات الحقيقيّة، وستر المصالح والامتيازات التي تتمتّع بها.

لهذا أكّدنا على وجوب البحث في مصادر الأوهام لإماطة اللّثام عن تلك المصالح الخفيّة، وعن الدّور الذي تقوم به السّدنة في ترويج الإشاعات والأباطيل، ويتّصل وجود الأصنام بما يدعوه الكتّاب اليوم بـ (الايديولوجي) الذي نعني به مجموعةً من المعلومات المشوَّهَة التي تهدف إلى إخفاء مصالح الفئات فيها وراءَ بعضٍ من الصّور الذّهنيّة الأنانيّة المتحيّزة! ويميّز "كارل مانهايم" بين معنيين مختلفين لمفهوم (الايديولوجي) حيث يُعدّ المفهومُ الأوّل للتّأكيدات التي يقدّمها المُعارِض فقط بقصد التّعبير عن مصلحةٍ خاصّةٍ، بينما يختصّ المفهوم الثّاني بالفِكَرِ والأوهام الشّاملة الاجتماعيّة التّاريخيّة، التي تتعلّق بالعالم بأجمعه، وليس في مقطعٍ معيّنٍ، أو فئةٍ معيّنةٍ، أو مصلحة خاصّةٍ. ويضعنا المفهوم الأوّل في مستوى علم النّفس، حيث نقول: إنّ المُعارِض يكذب أو يشوّه الحقائق، أو يخفي أشياءَ مهمّةً، فيختل، ويخدع، ويروغ، ولا يمكن أن يكون صريحاً! ففي المستوى الأوّل نقول: إنّ مصلحةً خاصّةً كانت سبباً في

الكذب والخديعة، وفي المستوى الثّاني، نحلّل خصائص ومميّزات الإنتاج العقليّ، وعلاقته بالتكوين الاجتماعيّ.

إنّ مدار البحث في تفسير النّوع الأوّل هو الفرد. دائماً وأبداً. بينما تكون الفئات الاجتماعيّة محورَ تفسير النّوع الثّاني، **ومن الطّبيعيّ أن تُفسّر مصالحُ الفرد ضمن مصالح الفئة الاجتماعيّة، أي الفئة التي ينتمي إليها، لأنّ كلّ فردٍ يساهم في وجهة نظر فئته الاجتماعيّة**؛ فلو قلنا مثلاً: إنّ زيداً إقطاعيٌّ فإنّنا لا نشير إلى رأيه الخاصّ أو إلى فئته الاجتماعيّة، بل نشير إلى تأكيده على مصالحه الفرديّة ما دامت منسجمةً ومتوافقةً مع مصالح الجماعة! ونعدّ النّوع الأوّل ضرباً من الرّياء، والنّفاق، والسّلوك الحَربائيّ، بينما يتّصف الثّاني بأنّه مجرّدٌ نسبياً عن كلّ تعليقٍ خُلُقيٍّ، أو كلّ قيمةٍ اجتماعيّةٍ. ومع ذلك، فقد يقترب المفهوم الكلّيّ الشّامل من مفهوم الوعي الكاذب، أو العقل المتحيّز الذي يشوّه الحقائق ويزوّر كلّ ما يقع تحت بصيرته.

درس "مانهايم" المفهومات المختلفة التي سيّرت الحركات الاجتماعيّة في التّاريخ، وصلتَها بالفئات الاجتماعيّة، فوصل إلى القول: إنّ تلك المفهومات المختلفة للتّاريخ، قد كوّنت قسماً من المدن الخياليّة، أو الأحلام الذّهبيّة، أو "الطّوبى" التي كانت تتطلّع إليها الفئات الاجتماعيّة المحرومة؛ وكان من نتاج الخصائص الغامضة والمبهمة للهدف النّهائيّ الذي تسعى إلى تحقيقه الفئات الاجتماعيّة... أنْ تُرِكَ لكلّ واحدٍ حرّيّة تكوين، وصوغ هدفٍ نهائيٍّ يتناسب وينسجم مع مطامحه ومصالحه؛ وهنالك أمثلةٌ عن مفهومَيْ الدّيمقراطيّة،

والحرّيّة اللّذين قد بانت أوجه التّناقض والاختلاف في معانيهما، وممّا لاشكّ فيه أن اختلاف المعاني في هذين المفهومين، يشير إلى الواقع الاجتماعيّ لكلّ فئةٍ.

لقد عنى مذهبُ الحرّيّة هنا، حقَّ كلّ فئةٍ في العيش وَفق امتيازاتها، بينما استُعمل الاصطلاح ذاتُه للدّلالة على تمتّع النّاس كافّةً بحقوقٍ متساويةٍ (وهو ما يعني ضمناً تحطيم مبدأ الحرّيّة) **فاختلاف المعنيين يشير إلى الاختلاف في الجذر الاجتماعيّ، لكن من السّهولة أن نعزو المعنى الأوّل للحرّيّة إلى طبقة المحافظين الذين يحاولون الاستفادة من حالةٍ تاريخيّةٍ، ونعزو المعنى الثّاني إلى فئةٍ ترغب في تبديل، وتغيير نظامٍ سياسيٍّ تراه غيرَ عادلٍ!** وهكذا ندرك من هذين المثالين كيف أنّ التّصميم الاجتماعيّ يقرّر معنى الموضوعات، ومضموناتها.

ولكن ما العامل الاجتماعيّ الذي يؤثّر في الإنتاج العقليّ؟ لعلّ الجواب هو أنّه الفئة الاجتماعيّة. وبتعريفٍ أدقّ حالة الفئة في المجتمع وفي التّاريخ. من جهةٍ، وأهدافَ وضروراتِ عملِها الجماعيّ من جهةٍ أخرى؛ مثال ذلك: حالة الأصنام، والسّدنة، والأتباع في المجتمع التي تتطلّب إرباك النّاقمين على الأصنام، الذين لا يعترفون بقدسيّتها وسلطتها بالعمل المتضامن، شعارهم (انصر أخاك ظالماً)ويمكن معرفة خصائص الحالة الاجتماعيّة بمعرفة العلاقة بين القوّة وغيرها من العوامل. وهذا يقول "ما نهايم": **إنّ كلّ إنتاجٍ عقليٍّ (الفِكَر، والأوهام، والطّوبى) يَظهَر نتيجةً لمركز الفئة، ومن الضّروريّ أن تكوّن نظرّيةٌ ذاتُ مدىً طويلٍ.**

ولا يعني "مانهايم" بالإنتاج العقليّ العلوم الرّياضيّة، والكيميائيّة، والطّبيعيّة التي لا تعطينا أيّةَ فكرةٍ عن الشّخص الذي قدّم الانتاج، ولأنه يمكن بطبيعة الكمّيّة. الفصل بين قيم الباحث، وعواطفه، وأوهامه، وتحيّزاته... وبين الحقائق؛ بينما تتّصل العلوم الاجتماعيّة (الكيفيّة) بالموضوعات الاجتماعيّة، لأنّها وسائل لتكيّف الفئة مع ظروف الكفاح من أجل السّيادة.

والحقيقة هي أنّ أنموذجات الفكر والإنتاج العقليّ، تتّصل بالعوامل الاجتماعيّة، وتعرض انسجاماً مع الحالات الاجتماعيّة، ولكنّ هذه الصّلة ليست ميكانيكيّةً، كالعلاقة بين السّبب والنّتيجة.

يؤكّد "مانهايم" على أنّ الفكر مرتبطٌ بالحالة الاجتماعيّة ذات الحيويّة والفعاليّة، فحين تتبدّل الحالة تتبدّل أنظمة التّفكير؛ وتتّصل الفِكَرُ، والأوهام، والطّاقة النّفسيّة، وتنتقل، وتتحوّل بانتقال وتحوّل القوى الاجتماعيّة، أي إنّ الصّلة وشيجةٌ بين أنظمة التّفكير والتّكوين الاجتماعيّ، وتختلف هذه الصّلة من حيث الشّدّة والضّعف تبعاً لاختلاف الظّروف والأحوال.

من المسلّم به أنّ الحقائق التي تهتمّ بلحظها معقّدةٌ، فيجب علينا أن نعرف كيف أنّ وهماً أو فكرة، يمكن أن يُعزيا لفئةٍ دون أخرى، ولأجل هذا، يقدّم "مانهايم" الخطوات التّالية:

**١- تكوين فكرةٍ موحّدةٍ ومنظّمةٍ.**

**٢- التّأكّد من صحّة تلك الفكرة عمليّاً.**

### ٣- عزو الفكرة إلى بعضٍ من الفئات الاجتماعيّة.

تثير المرحلة الأولى عقباتٍ واعتراضاتٍ وجيهةً، فلا يمكن أن نطلق أحكاماً على انسجام موقفين أو عدم انسجامها (مثال ذلك آراء المحافظين والأحرار)، وهل نستطيع القولَ بوجود طرائقَ عدّةٍ، وأساليبَ مختلفةٍ للانسجام والتّوفيق، فهل يمكن أن نصل إلى الحرّيّة عن طريق المساواة، أو إلى المساواة عن طريق الحرّيّة، وهنا تختلف الأنظمة السّياسيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة بالنّسبة لتأكيدها على قيمها الخاصّة.

وعلى كلّ حالٍ، لا يمكن أن نبدأ بأيّ بحثٍ، وأفكارُنا خاليةٌ مجرّدةٌ من كلّ وجهة نظرٍ سالفةٍ، وليس من المرغوب فيه أن يكون الأمر كذلك، فلأجل أن نحصل على أجوبةٍ نستطلع فيها آراء النّاس، لابدّ من وضع بعضٍ من الأسئلة، ولكن حين نفكّر في جوابٍ كاملٍ ومفصّلٍ، فإنّنا نقلّل من قابليّتنا لأخذ الجواب الصّحيح عن الواقع. ويذهب **"مانهايم"** إلى الرّأي ذاته الذي دعا إليه العالم الألمانيّ **"دلتاي"** القائلِ بالمعرفة المتغلغلة، والمؤسّسَةِ على الإعجاب المتبادّل، والعلائق، والصّلات القائمة على التّجاذب العاطفيّ والرّوحيّ.

وعندما أراد أن يتخلّص من التّحيّز، اقترح الكشف عن الأسس الوجوديّة، ثمّ انتزاع العناصر المصلحيّة، والقيم الخُلقيّة، وعندما يتمّ لنا ذلك، فسوف نتخلّص من كلّ مصادر الخطأ، وسنصل بعد ذلك إلى حقائقَ ثابتةٍ

وموضوعيّةٍ، غيرِ قِيَمِيّة فوق واقع المجال الاجتماعيّ والتّاريخيّ؛ وإنّ الرّبط بين الفكرة والحالة يعلّمنا بعضاً من الشّيء حول تطابق الفكرة مع الحالة؛ وقد توجد أفكارٌ، وأوهامٌ عديدةٌ مصمّمةٌ على قياس الحالة الاجتماعيّة، فأيّها أكثرُ انطباقاً وانسجاماً مع الحالة؟ أو بمعنىً آخر، نريد أن نعرف أيّ الموضوعات أكثر واقعيّةً، وأكثرُها حقيقةً؟.

لا شكّ في أنّ هذه الطّريقة تبيّن تعدّد الأصنام، وتعدّد الأوهام، وتتلاقى كثيراً من الأحكام الشّخصيّة. وقد تعترضنا مشكلةٌ أخرى تتعلّق بوجود أوهامٍ وخرافاتٍ عديدةٍ للصّنم ذاته، تنبثق من المظاهر المرئيّة المختلفة، فما معيار الموضوعيّة إذاً؟

يجيب "مانهايم" عن هذا السّؤال بوجود حلّين. أوّلاً: يمكننا الحصول على بعضٍ من الموضوعيّة بمقارنة مختلف الأوهام والأساطير التي يروّجها المغرضون والسّدنة. ثانياً: نأخذ أحسن وجهة نظرٍ، لتكون معياراً ومقياساً نقيس بها مدى انطباق تلك الأوهام مع الواقع. فمن الضّروريّ أن نوجد قاسماً مشتركاً أعظمَ لكلّ تلك المظاهر المختلفة؛ وبعد أن يتأسّس ذلك القاسم المشترك، يصبح من الممكن الفصل بين الفروق الأساسيّة الموجودة بين العناصر التي وصلنا إليها اعتباطاً وتعسّفاً، والتي نعدّها خطأً فاحشاً، وبين غيرها من العناصر. ولكن يجب ألّا يغرب عن بالنا، أنّنا لا نستطيع الوصول إلى المعرفة المطلقة، أضف إلى ذلك أنّ القاسم المشترك مفهومٌ حركيٌّ، يتبدّل باستمرارٍ! فهل تعني الموضوعيّة إذاً خلقَ ظاهرةٍ منظورةٍ كبرى، وجديدةٍ

تقارِن وتوحّد بين الظّاهرات التي سبقتها؟ ولكنّ هذه الظّاهرة الكبرى، لم تتأسّس بعد. وممّا لاشكّ فيه، أنّ كلّ مظهرٍ يشير إلى مجموعةٍ من المصالح المتضاربة في المجتمع، لأنّ كلّ مظهرٍ يرتبط بحالةٍ اجتماعيّةٍ.

كيف نصل إلى أحسن وجهة نظرٍ من وجهات النّظر المختلفة؟ وما المعيار للوصول إلى ذلك؟ يقول "مانهايم": **هي النّظرة الشّاملة الكبرى، ذات الفائدة العظمى. وقد عني بسعة النّظرة وشمولها قابليّتُها للتّغلغل فيما وراء المتناقضات والمتعارضات، التي تمهّد الطّريق للوصول إلى مقارناتٍ موحّدةٍ، وفسّر الفائدة الكبرى بالتّكيّف الكامل بين العمل، والموضوع الذي نودّ الحصول عليه.**

وعلى العكس من "مانهايم" يعتقد "سوروكن" بأنّ الواقع المعنويّ بعيدٌ عن إدراك الحواسّ، وهو العالم الخالد، الذي ينكر على الحواس قابليّتها للتّأكّد منها، فمعرفة الحواسّ لا يُعتمَد عليها، ويؤكّد على أنّ الأدلّة، والبراهين من خصائص التّأمّل والتّفكير.

وبذلك يكون الإيحاء الدّينيّ، والسّحر معاييرَ لحقيقة العقيدة أو الإيمان، ولمّا كانت الحواسّ والعقل غير قادرين على إدراك الواقع، فإنّ اللّدنيّة وحدها هي التي تستطيع التّأكّد من الحقيقة والواقع؛ أمّا في الحضارة المادّيّة الحسّيّة، فإنّ العقليّة الحسّيّة لا تعترف بوجود شيءٍ فيما وراء العالم الظّاهريّ. وفي

الحضارة الوسيطة، بين المعنويّة الدّينيّة والحسّيّة، أي (المثاليّة) فإنّ العقل والمنطق هما مقياس الحقيقة والواقع.

يقول "**سوروكن**" بالتّأرجح أو التّذبذب الثّنائيّ للحضارة، بين الطّابع المعنويّ والحسّيّ، فيؤسّس الأوّل على العقيدة، والتّصوّف، و يتجلّى فيه دور العباقرة، والرّجال العظام الذين يكونون في الغالب قساوسةً، وقدّيسين، وأتقياءَ، وأولياء، وأنبياء؛ بينما تُبنى الحضارةُ الحسّيّة على الفلسفة التّجريبيّة، لأنّ التّكنولوجي (النّظام الآليّ) وكلّ ما يتّصل به، يرجع إلى كتل الجماهير.

وهكذا تأرجحت الحضارة التّاريخيّة بين المعنويّة والحسّيّة، وقد تخلّلتها مُدَدٌ من الحضارة المثاليّة، التي تمثّل التّوافق والتّوازن بين الحضارتين، المعنويّة والحسيّة. ويعتقد "سوروكن" **أنّ أغلب شرورنا وأمراضنا الاجتماعيّة ناجمةٌ من انغماسنا، وهبوطنا في حضيض الحضارة الحسّيّة، ولم يقدّم "سوروكن" شرحاً وافياً حول السؤال: لماذا تحدث هذه المتأرجحاتُ بصورةٍ دائمةٍ ومستمرةٍ من قوىً داخليّةٍ ضمن الحضارة ذاتها، وليس من منبّهاتٍ خارجيّةٍ!** وأنّه لا منقذ للإنسانيّة إلّا أن يشتدّ الانغماس في الحضارة الحسّيّة، ثم تأخذ الحضارة في التّذبذب نحو المعنويّة، أو نحو المرحلة المثاليّة.

ويتّفق المؤرّخ الإنكليزيّ الكبير "**توينبي**" مع "**سوروكن**" في وجهة نظره المعادية للفلسفة التّجريبيّة واللّاعقليّة، ويتّفق الاثنان على أنّ النّضال بين حضارتي الشّرق والغرب، قد كوّن المعضلةَ الأساسيّة التي يواجهها العالم

اليوم، ويجب أن تُحَلّ الأزمةُ أو أن يُخفّفَ من حدّتها، وذلك إذا أراد المعسكران، أن يحافظا على بقاء المدنيّة.

فمنذ سنة ١٥٠٠ كان الغرب المعتديَ الأكبرَ في السّياسة العالميّة، والمختفي تحت ستار الاستعمار بشكليه، القديم، والحديث، والإرساليّات التّبشيريّة، والمساعدات الفنّيّة والتّربويّة، وكان الغرب ناجحاً بسبب سيادته الفنّيّة التّكنولوجيّة، وبخاصّةٍ بعد سنة ١٧٥٠. ولم يكن من السّهل بمكانٍ، أن تلتقي حضارة الشّرق بحضارة الغرب، فتوجد حالاً من الانسجام والتّوازن، فالشّرق قد استعار وقَبِلَ ومثّلَ جزءاً معيّناً من الحضارة الغربيّة، فقد اختار العلم، والفنّ، أو القسم المزدهر من الحضارة المادّيّة، وعارض تغلغل الدّيانة والقيم الرّوحيّة الغربيّة.

**حاول "سوروكن" أن يقيس ذبذبات التّيّارات الفكريّة في التّاريخ والتّأثيرات التي تُحدثُها، وقد بنى قياسه للتّيّارات الفكريّة على عنصرين هما:**

**١- العدد.**

**٢- وزن المفكّر أو ثقله الفكريّ.**

وقد عنى بالوزن الفكريّ، أولئك الذين خلّدهم التّاريخ، أي اعتراف الكتّاب أو المفكّرين الذين عاصروهم بأهمّيّتهم، ولكن يكاد القيام بهذا العمل يكون ضرباً من المستحيل، خاصّةً في تقدير الماضي! لأنّ الكتّاب لم يعيروا ذلك أهمّيّة، ولم يقيسوا الرّأي العامّ، أضف إلى ذلك، أنّه من المحتمَل ألّا يكون

لكثيرٍ من النّاس رأيٌ في كثيرٍ من المشكلات الفلسفيّة. ولكنّ تحقيق هذا يتطلّب تنظيم قائمةٍ مفصّلةٍ بمفكّري كلّ حقبةٍ، وبالإضافات العقليّة التي قدّموها للمعرفة الإنسانيّة، ثمّ تقسيم المفكّرين على التّيّارات الفكريّة المختلفة، كتقسيم الفلاسفة إلى واقعيّين واسميّين، ومثاليّين وماديّين وغيرها، بعدها يجب قياس تأثير كلّ مفكّرٍ، وأخيراً جمع كلّ المعلومات بهدف تصنيف الفلاسفة والمفكّرين.

**درس "سوروكن" ستّة اتّجاهاتٍ رئيسةٍ هي: التّجريبيّة، والعقليّة، والتّصوّفيّة، والنّقديّة، والشّكّيّة، والإراديّة. ورأى أنّه في التّجريبيّة يطغى الإدراك الحسّيّ، وتتجلّى العقليّة في الحضارة المعنويّة الدّينيّة والمثاليّة، ويكون الوحي مصدر المعرفة في الحضارة الدّينيّة، والعقلُ مصدرُ الحضارة المثاليّة. وتتّهمُ التّصوّفيّةُ العقلَ بالخداع والتّضليل، وتعتمد الشّكّيّةُ على الشّكّ في إمكان الحصول على معرفةٍ صحيحةٍ وثابتةٍ!. وتدّعي الإراديّة إمكان الوصول إلى المعرفة بعمل الإرادة. وتقول النّقديّة: إنّ عالم الظّاهرات وحده هو الذي يتّصل بمعرفتنا، أمّا الواقع النّهائيّ أو المتسامي، فلا يمكن إدراكه، وربّما كان غير موجودٍ.** وقد ربط "سوروكن" بين هذه الاتّجاهات وبين أنظمة الحضارة الثّلاثة(المعنويّة الدّينيّة، والحسّيّة، والمثاليّة). فقَبْل القرن الخامس قَبْل الميلاد، كانت الحضارة اليونانيّة دينيّةً معنويّةً، وفي القرن الخامس مثاليّةً، وخلال القرون التي تبعتها، صارت حسّيّةً مادّيّةً؛ ومنذ ظهور المسيحيّة حتّى القرن الرّابع كانت مدّةَ انتقال، وسيطرت بعدها الحضارة الدّينيّة المعنويّة من القرن

الخامس حتّى القرن الثّاني عشر، وسيطرت الحضارة المثاليّة من القرن الثّاني عشر حتّى القرن الرّابع عشر، والحسّيّة المادّيّة من القرن السّادس عشر إلى القرن العشرين.

كان "**سوروكن**" شديدَ الاهتمام بالظّروف الاجتماعيّة الحضاريّة، ولكنّه يضع مركز الثّقل في تفسير الانتاج العقليّ على الفِكَرِ، وعَدَّها الواقعَ النّهائيّ وبمعنىً آخر لإنّ الفِكَرَ تحكم العالم، وهذا ما يميّزه عن "**مانهايم**". ولا يدّعي "**سوروكن**" أنّ العوامل المستقلّة تُصمِّم الإنتاجَ العقليّ؛ ويقول بصدد بحثه عن "**مانهايم**":إنّ الصّفة الجوهريّة للإنتاج العقليّ، ما هي إلّا وظيفةٌ لعامِلَيْنِ هما: نظام الحقيقة أو الواقع الذي أدركه المفكّر، وكليّة وجوده . خاصّةً ظروفه الاجتماعيّة . الحضاريّة، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، فيعدّ التّصميم الخارجيّ ثانويّاً، فإن كان تشابهٌ في الظّروف الوجوديّة للمفكّرين، فلابدّمن أن تُظهِرَ النّظريّاتُ سلسلةً من المتشابهات، على الأقل في النّقاط الثّانويّة، على الرّغم من الاختلاف في المقوّمات الرّئيسة.

وبعد أن يناقش "**سوروكن**" كلّ ما تجمّع لديه من معلوماتٍ، يقول بعدم وجود أيّ تقدّم! فكلّ ما وُجد ما هو برأيه إلّا ذبذبةٌ أو تأرجحٌ في أنموذجات الحضارة الأساسيّة، وأنموذجات العلاقات الاجتماعيةّ، وفي تجمّع السّلطة، والظّروف الاقتصاديّة التي تحدث على شكل منازعاتٍ؛ وينعت العلاقات العائليّة بأنّها جيّدةٌ، والعلاقاتِ القائمةَ على أساس التّعاقد، رديئةٌ وسيّئةٌ. فكلّ شيءٍ حسيٍّ ماديٍّ، رديءٌ وسيّءٌ بالنّسبة له. ويعتقد بأنّ المجتمع

المعاصر سيّءٌ وقبيحٌ لأنّ القيمة عنده تتبع مبدأ اللّذة، والمنفعة، والنّسبيّة؛ ويضع "**سوروكن**" اللّائمة على المدنيّة الغربيّة في أوربّا وأميركا، لأنّها قضت على كلّ شيءٍ نبيلٍ حسنٍ وجيّدٍ.

ويرفض في نظريّته العامّة للتّبدّل الاجتماعيّ العواملَ الخارجةَ عن الحضارةِ، كأسبابٍ جوهريّةٍ في إحداث ذلك التّبدل، كالعوامل المحيطة، أو كقولنا: إنّ التّبدّلات التي حدثت في بنية العائلة، نشأت من حركة التّصنيع. ويقول: إنّ كلّ تلك النّظريّات التي تحاول أن تفتّش عن عواملَ خارجيّةٍ لتفسير التّبدّل الاجتماعيّ، إنّما تزيده تعقيداً وغموضاً! حيث يقول: إذا أردنا مثلاً أن نفسّر تبدّل العائلة بتبديل التّصنيع، ونحاول شرح التّصنيع بتبدّل السّكّان، ونفسّر تطوّر السّكّان بالمناخ، فإنّنا ندخل في قائمةٍ طويلةٍ من العوامل التي لا نهاية لها؛ **ويؤكّد على أنّ الحياة هي دائماً وأبداً في تبدّلٍ، ولا تحتاج إلى تفسيرٍ ما دامت متبدّلةً، ولكنّ (ظاهرة) السّكون والثّبوت، هي التي تحتاج إلى شرحٍ وتفسيرٍ.**

ومهما اختلف "**مانهايم**" عن "**سوروكن**" في تفسير الأسس التي يقوم عليها الإنتاج العقليّ، فإنّ تكوين الأصنام، وخلق الأوهام والأساطير، يعرض وجهتي نظرٍ متناقضتَيْن، هما: المثاليّة، والاجتماعيّة.

أمّا العالم الاجتماعيّ الألمانيّ "**ماكس فيبر**" فقد بحث عن الأسس الاجتماعيّة للفِكَرِ، والأوهام، والمصالح، وذلك عندما ناقش المؤسّسات

البيروقراطيّة، وقارن بينها وبين الزّعماء العصاميّين، أي قارن بين الحياة الرّتيبةِ الرّوتينيّة من جهةٍ، والتّطوّر الفجائيّ المملوء بالطّفرات، والقفزات من جهةٍ أخرى، فوصل إلى وجود علائقَ وصلاتٍ بين الفِكَرِ والمصالح؛ وأكّد على أنّ الفِكَر تصبح قوىً ماديّةً إذا اعتنقها النّاس، وربطوا بين الحيويّة التّاريخيّة للفِكَرِ وبين دورها في تدبير المصالح الاقتصاديّة، وأنّ أهمّيّة الفِكَرِ تتّضح في الإرجاع النّفسيّ الذي تحدثه؛ ولكنّه رفض أن يعتبر الفِكَر مجرّد انعكاساتٍ للمصالح النّفسيّة، والاجتماعيّة، وقال بوجود حقولٍ للمعرفة تتبع طريقها الخاصّ، كالنّفسيّة، والسّياسيّة، والاقتصاديّة والدّينيّة، وقد يحدث نزاعٌ بين الفِكَر والمصالح، أو بين حقلٍ وآخرَ، أو بين الحالات الدّاخليّة، والمطالب الخارجيّة.

**وقال "فيبر": إنّ العلاقة بين الفِكَر والمصالح (علاقةٌ اختياريّةٌ) وليست هي انعكاساً مجرّداً أو تعبيراً.** ويعتقد الاشتراكيّون بأنّ الفِكَر تعبيرٌ عن المصالح، فعدّوا البروتستنتيّة التي سمحت بالفوائد والأرباح بموجب ذلك تعبيراً عن الـ (لاعقلانيّة) التي تسود السّوق. ويرى "نيتشه" أنّ المسيحيّة المتنسّكة تُظهِرُ غضب وحنق العبيد الذين يعبّرون عن ذلك بالثّورة الخلقيّة. ولم ير "فيبر" أيّة صلةٍ وثيقةٍ بين المصالح، أو الأصل الاجتماعيّ الذي يرجع إليه المتكلّم، ومضمون الفكرة ومحتواها في بدء تكوينها؛ فلم يكن قادة الحركات الثّوريّة ينتمون للطّبقة الثّائرة ذاتها، والذين يصبحون حماةً ومدافعين عن آراء وفِكَرِ تلك الطّبقة.

يختار النّاس أنواعاً معيّنةً من الفِكَر التي تناسب علاقاتهم، فليست هنالك صلةٌ مؤسّسةٌ بين مضمون الفكرة، ومصالح أولئك الأتباع، الذين يعتنقونها من أوّل ساعةٍ؛ فقد يحدث في التّاريخ أنّ الأتباع قد يهجرون فكرةً معيّنةً إذا لم تستطع أن توجّه سلوكهم، أو ترعى مصالحهم المختلفة! والطّريقة التي تُتّبع، هي أنّ الناس يختارون الفِكَر ويفسّرونها ليوجدوا بينها وبين مصالحهم صلةً، وإذا لم يحقّقوا ذلك فإنّهم يتركونها.

**انتقد "فيبر" التّفسير المادّيّ للتّاريخ، إذ حاول في كتابه (الأخلاق البروتستنتيّة) أن يبيّن الدّور المستقلّ الذي تلعبه الفِكَر في نشأة الرّأسماليّة الحديثة وفي تطوّرها؛ واهتمّ بأنواعٍ خاصّةٍ من الأوهام التي رأى فيها صوراً تبرّر وتحرّك وتحفّز الطّبقات حتّى تمسّ مصالحها المادّيّة.** مثال ذلك: قبول الدّعاية الدّينيّة في الحروب الصّليبيّة، واتّصالها بالمطامح الاستعماريّة التي كان اللّوردات الإقطاعيّون يتطلّعون إليها.

لقد أنكر "فيبر" أهمّيّة ما يُدعى بـ (العوامل المادّيّة في التّبدّل الاجتماعيّ) ولكنّه قال: ليس من الضّروريّ إهمالها إهمالاً كليّاً. بل رفض المبالغة فيها، وعدِّها العواملَ الوحيدةَ المقرِّرةَ والمصمِّمةَ للظّاهرات الاجتماعيّة، وقد عزّز قوله بالنّقاط التّالية:

١- اتصال الرّأسماليّة الحديثة بمجموعةٍ من القيم. أي المواقف العقليّة الموجّهة نحو فعالياتٍ اقتصاديّة.

٢- وجود صلاتٍ وثيقةٍ بين تلك المواقف الخاصّة، والانتماء الدّينيّ، والمهنيّ في بعضٍ من المناطق الألمانيّة التي جعلت عدد مالكي ومديري المشروعات الرّأسماليّة من البروتستانت أكثر من الكاثوليك.

٣- وجود علائق بين الموقف العقليّ والأخلاق البروتستنتيّة، بينما لا توجد علاقةٌ بينها وبين الكاثوليكيّة.

٤- لم تفرض البروتستنتيّة أيّة عقوبةٍ على حيازة الثّروة، وإنّما عملت على تقديم التّبرير الخلقيّ المباشر للفعاليات الاقتصاديّة . بينما كانت الكاثوليكيّة تحرّم ذلك.

يتّفق تفسير "فيبر" مع طريقته العامّة في دراسة الظاهرات الاجتماعيّة التي تؤكّد على وجهة النّظر الذّاتيّة، وهاجم الفرضيّة القائلة: إنّ الغاية من البحث العلميّ، هي الوصول إلى صورةٍ كاملةٍ وحقيقيّةٍ عن الظّاهرات. وقال: **إنّ كلّ المعرفة التّجريبيّة القائمة على الخبرة معرفةٌ مجرّدةٌ في طبيعتها، فلا يمكن أن تشتمل على كلّ الحقائق، حتّى ولو كان من السّهولة بمكانٍ الوصول إليها، والتّثبّت منها، ولكنّ تلك الحقائق قد تناسب بعضاً من مصالح الباحث وأهدافه، وتعبّر وجهة النّظر الذّاتيّة عن آراء النّاس وفِكَرِهِم، وعن المعاني التي يضيفونها على الموضوعات، وعن أنماط سلوكهم ودوافعهم.** وأكّد على أنّ الظّاهرات ذاتُ كيانٍ وحيدٍ معدوم النّصير، ولا تستطيع الطّريقة العلميّة أن

تحيط بما تتضمّنه من حقائق، إضافةً إلى أنّ مفهوماتنا العلميّة أفكارٌ مجرّدةٌ لا تحيط بالواقع إحاطة تامّةً وكاملةً، وقال بوجود جانبين للمعنى هما:

المعنى الواقعيّ الفعليّ، كما يبدو للفرد القائمِ بالعمل، والمعنى الذّاتيّ الذي يُدرَك بصورةٍ نظريّةٍ، وقد دعا "فيبر" المعنى الثّاني بـ المعنى الكامل أو المثاليّ، الذي يتميّز بكونه مفهوماً مجرّداً، وعامّاً، إلّا أنّه يفيد في معرفة الواقع المنفرد، والوحيد ومعدوم النّصير.

ومهما تكن المعارضة شديدةً بين المثاليّة والمادّيّة في تفسير الظّاهرات الاجتماعيّة، وبخاصّةٍ ظاهرة الأصنام الاجتماعيّة، فإنّ أسسها تمتدّ في طبيعة النّظام الاجتماعيّ، وطبيعة الإنسان، وهما وجهان للواقع الاجتماعيّ، ولا يمكن الفصل بينهما.

فمن المسلّم به، أنّ احترام الأصنام وتقديسها، يحدثان في ظروفٍ معيّنةٍ لا يستطيع الإنسان السّيطرة عليها، فمن الواجب معرفة طبيعة تلك الظّروف، **ولا يمكن أن نعزل الإنسان عن الحالة لأنّه جزءٌ منها،** فلا يمكن أبداً أن تكون الأصنام من صنع إنسانٍ معيّنٍ وإبداعه، إذ يحتاج خلقها وتكوينها للاعتراف بها، وقبول الجماعة لها، وأن تكون أوهامه، وأساطيره، وخرافاته، مصمّمة ومقرّرة بالعادات والأعراف والتّقاليد.

وعلى الرّغم من أنّ للأصنام معانيَ تختلف في تأكيد الفئات الاجتماعيّة على بعضٍ من النّقاط، تلك الفئات التي تدين للأصنام بالولاء والإخلاص،

والتّقديس، فإنّه يوجد قاسمٌ مشتركٌ أعظم يجمع الفئات كافّةً، وأنّ ذلك القاسم المشترك من صنع الجميع، أي نتيجةٌ للفعاليّة الجماعيّة؛ فإنْ كان القاسم المشترَك يفرض نوعاً معيّناً من التّفكير والعمل على سلوك الأفراد، الذي يكشف عن تدخّل الجماعة، يصبح تجربةً اجتماعيّةً تتجاوز نطاق خبرة الفرد وتجربتِه، ويدرك الفرد أهمّيّة الرّموز المقدّسة التي تستخدمها الأصنام والسّدنة، كما يدركها الآخرون، وبذلك يكون إدراكه إدراكاً مشترَكاً، وخبرتُه ضمن إطارٍ أوسعَ، يشتمل على الخبرة الاجتماعيّة.

إنّ اتّساع سيطرة الأصنام وشيوع قدسيّتها، وترويج الأوهام والأساطير حولها، وسائلُ تعمل على نشر الإرهاب، والعنف، والتّعذيب. ومهما اختلفت التّفسيرات في البحث عن طبيعة وجودها، وميزاتها، وخصائصها، **فإنّها قد ترجع كما يقول "هيلفتيوس" إلى عاملين هما: جهل النّاس بالقوانين التي تسيّر الطّبقة والمجتمع أولاً، والحاجة إلى الطّمأنينة ثانياً، وهي الميزة الخالدة في الطّبيعة البشريّة.**

ويؤكّد "هيلفتيوس" على أنّ العالم قد انقسم إلى فريقين هما: الفريق الذي يملك المعرفة، وليس له أصنامٌ وأوهامٌ، وفريق متعصّبٌ يقدّس الأصنام، ويؤمن بالأوهام والخرافات، وليس له معرفةٌ.

قلنا: إنّ وجود الأصنام يقضي بوجود السّدنة التي تستخدم الوسائل كافّةً لتحقيق مصالحها الشّخصيّة عن طريق التّلويح ببعضِمن الامتيازات

والتّهديد والتّخويف، أي إنّها تغدق المنح، والألقاب، والسّمعة، والسّلطة على بعضٍ من النّاس، وتنزل أقسى العقوبات بالآخرين! وما دام الإنسان يعيش ضمن الإطار الاجتماعيّ، وعليه أن يعترف بسلطة بعضٍ من الأصنام وقدسيّتها، فلابدّ إذاً من أن تشتمل سلطة الأصنام على النّاس كافّةً مع درجاتٍ متفاوتةٍ من الاعتقاد والتّضحية، والتّعصّب، والتّحيّز. فقد يكون أحد النّاس متعصّباً، ولا يرى في هذا العالم غير صنمه، فهو مستعدٌّ في كلّ لحظةٍ لأن يضحيّ بنفسه من أجله، ليربح الخلود والجنّة، وقد يكون الآخر انتهازيّاً يتحيّن الفرصة لتحقيق مطامعه ورغباته؛ ولهذا كان من مصلحة الأصنام أن لا تُنشر المعرفةُ العلميّة، وألّا يشيع العلم حتّى يبقى النّاس متعصّبين لمجموعةٍ من الأوهام والخرافات التي تضع حجاباً كثيفاً على بصائرهم، فتحول دون الوصول إلى المعرفة الواقعيّة.

**وإذا صادف ورضيت السّدنة التي بأيديها الرّموز المقدّسة والسّلطة، والتي تريد الدّفاع عن مصالحها وامتيازاتها بالقبول في بعضٍ من الأحيان، بالإصلاح والتّعديل... فلأنّها تتحاشى كلّ تبدّلٍ، وترغب في الاستمرار بالامتيازات بالتّنازل عن أمورٍ ثانويّةٍ، وهي عمليّةٌ من دون شكّ، وتدلّ على قرب انهيار السّدنة القديمة، وانبثاق سدنةٍ جديدةٍ.**

# الفصل السّابع

# مجتمعٌ من دون أصنام

أكّدنا في الفصول الماضية الفكرة القائلة: إنّ وجود الأصنام، والأوهام، والأساطير، عناصرُ أساسيّةٌ في تكوين طبيعة الإنسان والنّظام الاجتماعيّ، وبيّنا أنّ طبيعة الإنسان مكتسبةٌ، وليست موروثةً، فهي إذاً من خلق المجتمع، ولخّصنا تلك الطّبيعة بمجموعةِ المشاعر، والأحاسيس، كالمحبّة، والكراهية، والحسد، والغيرة، والخيلاء، والكبرياء، والنّفاق، التي ينالها الإنسان من معيشته مع الجماعة، وهي شروطٌ جوهريّةٌ لعضويّته في المجتمع، فهو يحبّ ويكره، ويتكبّر ويتواضع، ويغضب ويضحك، بالطّريقة والأسلوب الذي يحبّ به الآخرون ويكرهون الموضوعات ذاتها التي أضاف عليها الآخرون معانيَ خاصّةً، فهل من الممكن إذاً أن نتخلّص من الأصنام والأوهام؟

ندعو محاولة التّخلّص من الأوهام والأساطير هذه بـ **(الموضوعيّة)** ونعني بها الفصل التّامّ بين الآراء الذّاتيّة، والأحكام الخُلُقيّة، والأوهام، والخرافات، والأصنام، وبين الظّاهرات التي نلحظها، بحيث نتأمّل في محيطنا الاجتماعيّ، ونتبصّر في معالمه، فلا نطلق الأحكام الخُلُقيّة على النّاس والحوادث، لأنّنا متأثّرون بأنواعٍ مختلفةٍ من الدّوافع، فنقول: زيدٌ عبقريٌّ فذٌّ، وزعيمٌ موهوبٌ، ونابغة عصره... إذا كان الصّنم الذي يعبده ويقدّسه هو

صنمنا، والفئة التي ينتمي إليها هي فئتنا، والإقليم الذي يرجع إليه هو إقليمنا، ونحكم على عمروٍ بأنّه غبيٌّ، وسافلٌ، ودنيءٌ، ولا يصلح لشيءٍ لأنّ صنمه يتعارض مع صنمنا، وأوهامه تختلف عن أوهامنا، والفئة الاجتماعيّة التي ينتمي إليها تتنازع على القدسيّة والسّلطة مع فئتنا.

**إذا كان الإنسان (موضوعيّاً) فإنّه يتحلّى بصفة الاستقامة في الإنتاج الفكريّ، ولا يفاضل بين النّاس والموضوعات استناداً على مقاييسَ سالفةٍ يفرضها عليهم، كما لو كان أحد النّاس يشتري بيضاً، ومقياسه في جودة البيض أن يمرّر البيضة من حلقة معيّنةٍ لديه، فإن كانت البيضة كبيرةً ولم تمرّ من الحلقة، اشتراها وإن كان الأمر عكّس ذلك يرفضها!.**

حقّق العلماء هذه الدّرجة من الموضوعيّة في العلوم الطّبيعية قبل العلوم الاجتماعيّة، ولعل السّبب في ذلك، هو أنّ العلوم الاجتماعيّة تبحث في كائناتٍ بشريّةٍ، تحبُّ وتكره، تفرح وتحزن، تتكبّر وتتواضع، تجدّ وتهزل، تخلِص وتخون، على موضوعاتٍ مختلفةٍ، ومتباينةٍ، لا تدخل تحت حصرٍ؛ وقد عملت السّلطة والكنيسة سويّةً على إشاعة التّحيّز، والوهم، والخرافة، لإحلال التّوازن، وبعث القوّة المعنويّة في الأتباع والرّعايا، إذ تقوم السّلطة على أساس العصبيّة، وتتأسّس الكنيسة على الإيمان ببعضٍ من الموضوعات المجرّدة.

كان الفلاسفة اليونان أوّلَ من بحث في التّحيّز، والنّفاق، والوهم، والخرافة، فقد تبيّن لهم أنّ الإنسان هو الأصل في الوجود، لأنّه هو الذي يصنع

الأسماء والنّعوت للموضوعات، ويعيّن الصّفات والخصائص التي تتميّز بها الموجودات، وأدرك اليونانيّون أنّ آلهتهم من صنع الخيال. وأكّد السّوفسطائيّون على أنّ المجتمع هو الذي يصنع الشّرائع، وأنّها تتطوّر بتطوّر المجتمع وتتبدّل بتبدّله. **وكان النّاس في القديم، يعتقدون بخلود النّظام وأزليّته، وأنّ العناية الإلهيّة قد أوكلت لرجال الدّين تطبيق النّظام السّماويّ ورعايتَه. ولم يعلم النّاس بإمكان تبديل ذلك النّظام إلّا مؤخّراً، وذلك حين بدأ النّزاع السّافر بين الكنيسة، والدّولة على السّيادة، والسّلطة، والقدسيّة، وكان رجال الدّين يشيعون الفكرة القائلة: إنّ الإنسان ابن الخطيئة، وأنّ مجرّد مجيئه لهذه الدّنيا خطيئةٌ كبرى! وأنّه لا سبيل لإنقاذه من الهوّة التي هو فيها، إلّا باللّجوء إلى الكنيسة؛ وقد عدّت الكنيسةُ الدّولةَ شيئاً طارئاً مؤقّتاً، ويجب أن تخضع للسّلطة الرّوحيّة، وأن يطأطأ الأباطرة الرّؤوس أمام رجال الدّين!** واعتقد "توماس اكويناس"(١٢٢٦-١٢٧٤) بتفوّق الكنيسة على الدّولة في كلّ الأمور الرّوحيّة والدّنيويّة، وقال بوجود قانونٍ إلهيٍّ ينزل عن طريق الوحي، ويُحافظ عليه من قبل الكنيسة. وبعكسه "دانتي" (١٢٦٥-١٣٢١) الذي دافع عن حقوق الإمبراطور في ذلك الصّراع الطّويل بين الكنيسة والدّولة، وبرهن على أنّ السّلطة التي تتمتّع بها الدّولة، تنحدر من الله، وليس من البابا الذي يُعدّ وكيلَ الله على الأرض، وقال: إنّ الإمبراطوريّة موجودةٌ في العالم قبل الكنيسة، فلا يمكن والحال هذه أن تستمد سيادتَها من الكنيسة. ويتجلّى القبول الإلهيّ بوجود الإمبراطوريّة، وبأسبقيّتها بميلاد السّيّد المسيح في طرفٍ من أطراف ممتلكاتها! وأيّد استقلال سلطة الإمبراطوريّة وانفصالها عن البابويّة وأنّها

ليست مستمدَّةً منها، بينما أخضع الفيلسوف **"هوبز"**(١٥٨٨-١٦٧٥) الكنيسة للدّولة، وعدّ تعاليم الكنيسة مجموعةً من الأوهام والخرافات.

ولو أردنا أن نتعرّف على الأسباب والعوامل التي أدّت إلى هذا النّزاع بين الكنيسة والدّولة، لوجدناها في التّكوين الاجتماعيّ، والسّياسيّ، والاقتصاديّ للمجتمعات الأوربيّة، فقد تطوّرت المدن، ونشطت الاستكشافات الجغرافيّة، وقويت الطّبقة الوسطى، فطغت موجةٌ من النّقد والشّكّ في القيم الاجتماعيّة التي كان النّاس يقدّسونها، فأخذ الفلاسفة يبحثون في فكرة التّبدّل، والحركة، تاركين مفهوم الأزليّة، والثّبوت، والجمود.

يقول الفيلسوف **"فيكو"**(١٦٦٨-١٧٧٤): إنّ تغيّر الظّروف، وتبدّل الأحوال، يدخلان الشّكّ والرّيبة بما لدى النّاس من قيمٍ وفِكَرٍ، وأوهامٍ إلى درجةٍ يفقدون فيها طمأنينتهم، فليس باستطاعة الأوهام والفِكَر القديمة أن تفسّر الحالات الجديدة.

ثمّ بدأ الفلاسفة يدرسون حركة المجتمع، والمراحلَ التي يمرَ بها، **فقد اقترح "ابن خلدون"(١٣٢٢-١٤٠٦) أربع مراحلَ لتطوّر المجتمع، هي البداوة، والملك، والحضارة، والانهيار.** ففي مرحلة البداوة يجتمع النّاس للتّعاون، والتّضامن في معاشهم لأنّ الفرد بمفرده لا يمكن أن يشبع كلّ حاجاته الضّروريّة، ولهذا لابدّ من مساعدة غيره له، ويصبح الاجتماع الإنساني ضروريّاً لأنّ الإنسان مدنيٌّ بالطّبع. ويستند أساس ظهور المرحلة الثّانية. الملك

على الشّجاعة، لأنّه يعني التّقليد، والحكم، والقهر. وفي الحضارة يعمّ التّرف والنّعيم، وتذوب العصبيّة، وتذهب الشّجاعة. وفي الانهيار تكثر المفاسد وتزداد الأسعار، وتضطرب الحياة العقليّة، وتنتشر الرّذائل ، كالكذب، والمقامرة، والغشّ، والسّرقة، والفجور، والرّبا.

**استفاد "هيردر"(١٧٧٤-١٨٠٣) من مفهوم التّشابه بين الكائن الحيّ وبين المجتمع، فقال: إنّ المجتمع يمرّ في مراحل هي: الولادة، والطّفولة، والشّباب، والرّجولة، والكهولة، ثمّ الانحلال، إذ يسير المجتمع سيراً حلزونيّاً.**
أمّا "**كندرسية**"(١٧٤٣-١٧٩٤) فيرى أنّ تقدّم المجتمع، وتبدّله يسلكان خطّاً مستقيماً، تحقّق فيه كلّ مرحلةٍ جديدةٍ درجةً من الشّرّ أعلى من المرحلة التي سبقت، ففي المرحلة الأولى يسود السّحر والخرافات، وتظهر طبقةٌ من رجال الدّين، تُخضِعُ النّاس لما تشيعه من الأساطير والأوهام.

وقد تصوّر "**كندرسية**" الدّين وسيلة من وسائل استغلال النّاس وخداعهم، وعدّ ضعف الدّين في المجتمع مقياساً لتقدّم التّفكير البشريّ، واتّهم المسيحيّة بإبعاد النّاس عن واقعهم، وإشغالهم بأمور عالمٍ ثانٍ لا وجود له، ونَعَتَ رجالَ الدّين بالخداع والاحتيال. ووصف المرحلة التي سيطرت فيها الكنيسة، بأنّها أحطّ مراحل التّقدّم البشريّ، حيث انتشر الجهل، وعمّت الأوهام والأضاليل، وتعطّل التّفكير السّليم، وتفنّن رجال الدّين بتعذيب رجال الفكر. ويتنبأ "**كندرسيه**" في آخر مرحلةٍ عن مستقبل الإنسانيّة، فيقول بالقضاء على الحروب والاستعمار والاستغلال.

وتصوّر الفيلسوف "**هيغل**"(١٧٧٠-١٨٣١) ثلاث مراحل في التّاريخ.

في أوّلها كان النّاس يناضلون ويكافحون من أجل ضمان حرّيّة شخصٍ واحدٍ هو الزّعيم، أو الرّئيس، وفي الثّانية كانوا يحاربون من أجل حرّيّة الأقليّة. الطّبقة الحاكمة. ولكن بعد ظهور المسيحيّة وقيام دولة بروسيا، فإنّ النّضال صار يهدف إلى تحقيق حرّيّة كلّ إنسانٍ، وأكّد "**اوكست كونت**" وجود مراحل ثلاثٍ هي: المرحلة اللّاهوتيّة، والميتافيزيقيّة، والعلميّة، ووصف التّقدّم بزيادة السّيطرة التي يمارسها الإنسان على محيطه، وربط بين المرحلة الأولى وظهور العائلة، وبين المرحلة الثّانية وظهور الدّولة، وبين المرحلة الثالثة وظهور دين الإنسانية جمعاء (أي علم الاجتماع). وبمعنىً آخر فقد سادت الرّوح الإيثاريّة في المرحلة الأولى على الشّؤون المنزليّة والمدنيّة، وسيطرت الرّوح الجماعيّة في المرحلة الثّانية، وأخيراً جاءت الرّوح العامّة الشّاملة في المرحلة العلميّة، ومن الممكن أن نَصِفَ هذا التّطوّر بشكلٍ آخر، إذ بدأ بالاتّصال الرّوحيّ، والعاطفيّ (العائلة) ثمّ الاحترام والتّقديس (الدّولة) وأخيراً الإحسان وحبّ الخير (الإنسانيّة).

هنالك صلاتٌ وثيقةٌ بين هذه المظاهر المختلفة للتّطوّر الأخلاقيّ، وبين عبادة الأصنام، والموضوعات التي صنعها الإنسان، والتي أوجدت العائلة، ثمّ تعدّد الآلهة الذي أوجد الدّولة، وأسبغ عليها الاحترام والتّقديس، وأخيراً الاعتقاد بإلهٍ واحدٍ خلق الشّعور بالخير والإحسان؛ ولو رجعنا إلى قانون

المراحل الثّلاث الذي فسّر فعاليّات الإنسان بالفتح أوّلاً، والدّفاع ثانياً، وأخيراً بالصّناعة... لوجدنا "كونت" قد صيّر من المشاعر، والعواطف قوّةً ديناميكيّةً، ومن العمل دافعاً للتّقدّم، ومن العقل قوّةً موجّهةً ومرشدةً.

**كان من نتاج التّفكير في تبدّل المجتمع وتغييره، أن أصبح المجتمع والدّولة موضوعَين دنيويّين، قابلين للبحث والمناقشة، لأنّها ينموان ويتطوّران وفقاً لقوانينَ و صيروراتٍ طبيعيّةٍ، وليس من الضّروريّ أن يتشابه النّموّ، والتّطوّر في الدّولة والمجتمع، ولهذا صار بميسور علماء الاجتماع أن يعالجوا كلّ موضوعٍ على انفرادٍ.**

قلنا: إنّ (الموضوعيّة) اصطدمت بصعوبتين هما: نفوذ الكنيسة وسيطرة الدّولة، ولا يمكن أن نتصوّر مجتمعاً من دون دولةٍ أو من دون تنظيمٍ روحيٍّ مهما كانت درجته من حيث العبادات والطّقوس وغيرهما، فمن قبيل تحصيل الحاصل، أن تستمرّ الأوهام والخرافات، ولو أنّها تختلف من حيث الشّكل، والمضمون، والاتّجاه، فقد كانت فكرة الأخوّة والمحبّة خرافةَ العصور الوسطى ولا زالت إلى يومنا هذا **فالمسيحيّ الزّنجيّ في أميركا لا يمكن أن يصلي لله وأن يتعبّد في كنيسة الرّجل الأبيض،** مع علم أنّ الدّين المسيحيّ ينصّ على (أنكم جميعاً أبناء أبٍ واحدٍ)و على الرّغم من ازدهار الإسلام في القرن الأوّل الهجريّ فإنّه لم يقضِ نهائيّاً على العصبيّات القبليّة، **ولم يحقق المسلمون فكرة المساواة التي جاء بها الإسلام بين العرب المسلمين، والأعاجم!!.**

وبغضّ النّظر عن الادّعاء العامّ بالنّظام الدّيمقراطيّ، المؤسّس على مبدأ تكافؤ الفرص، فلا زلنا نشعر بالتفاضل المبنيّ على عوامل أخرى لا تخضع للعقل والمنطق.

دعت الحركة المجتمعَ إلى إعادة النّظر في الأصنام الاجتماعيّة التي تدور حولها التّحيّزات والأوهام والخرافات، وتحاول (الموضوعيّة) التي نتصوّرها في مجتمعٍ من دون أصنامٍ أن تفصل بين مختلف أنواع التّحيّز الشّائعة في المعتقدات حول الواقع الاجتماعيّ، بفضل ما يتوافر لها من طرائقَ علميّةٍ.

ويبدو أنّ للأصنام تاريخاً طويلاً قد نَفَذَ في صميم الحضارة المعنويّة، بحيث أنّها أصبحت جزءاً لا يتجزّأ من الحضارة ذاتها. ولهذا تصبح (الموضوعيّة) الكاملة المطلقة مستحيلة الحصول، أي لا يمكن التّخلّص من الأصنام والأوهام والخرافات؛ وقد يدّعي بعضهم إمكان زوال الأصنام والأوهام من مجتمع مجرّدٍ وخالٍ من التّمايز الطّبقيّ، لأنّ الأصنام والأوهام انعكاساتٌ لتقسيم المجتمع إلى طبقات، فإذا زالت الطّبقات تزول الأصنام والأوهام. أي إنّ المجتمع الـ "لاطبقيّ" هو أكثر المجتمعات (موضوعيّةً) ولكنّ المسألة ليست بهذه السّهولة، إذ تتحوّل أقسام المال والإقطاع إلى أصنام المبادئ، فيبدأ التّقديس للخوارق، والإيمانُ بالمعجزات التي ينجزها قادة العالم الـ "لا طبقيّ" وأبطالُه، بعد أن كان الاحترام للقدّيسين، والقياصرة، ورجال المال، **لأنّ العالم الاجتماعيّ في مجتمع خاضعٍ لفكرةٍ واحدةٍ، لا يستطيع أن يتقبّل أيّة فكرةٍ تناهض فكرة مجتمعه ووهمه.**

إنّ اختيار الحقائق، وتصنيفها، وشرحها أمورٌ خاضعةٌ مُقدَّماً لفِكَرٍ سالفةٍ يتحيّز لها الإنسان، فالتّحيّز هو الذي يعيّن الاختيار، ويحدّد التّصنيف، ويؤثّر في شرح الحقائق وتفسيرها؛ فكيف الحال إذاً في مجتمعٍ قائمٍ على أساس التّحيّز لفكرةٍ معيّنةٍ، يصعب عليه جدّاً أن يستأنس بآراء غيره من المجتمعات التي تؤمن بفكرةٍ تخالف فكرته؟!.

قلنا: إنّ السّبيل الوحيد للقضاء على الأصنام والأوهام هو إتاحة الفرصة للمناقشة، والمناقضة، والجدل، وتبادل الرّأي، حتّى يستقيم التّفكير وتتبدّد الأوهام، أمّا إذا آمن الفرد بوجهة نظرٍ ما مُقدّماً، أو برأي قد فُرض عليه، ثمّ طُلب منه أن يكون موضوعيّاً، فلابدّ من أن يكون إنتاجه العقليّ مهزلةً بعيدةً عن الواقع.

**إنّ الأمل الوحيد في الابتعاد عن تأثير الأصنام والأوهام في البحث عن الحقائق يتحقّق بالحرّيّة، حرّيّة التّفكير، والضّمير، والمناقشة، وإبداء الرّأي، والتّصويت، فإذا تعاونت السّلطة، والأصنام في القضاء على الحرّيّة فإنّهم يمهّدون الطّريق لظهور النّفاق، والرّياء، والخداع، والحيلة.**

لقد ظنّ بعضٌ من علماء الاجتماع، بأنّ تحسين ما لدينا من طرائقَ ووسائلَ علميّةٍ، كاستخدام الإحصاء والآلات الحاسبة، سيحقّق لنا الوصول إلى (الموضوعيّة) ولهذا فقد كرّس هؤلاء العلماء، وخاصّةً في أميركا جهودهم لتطبيق الطّرائق الإحصائيّة في دراسة الظّاهرات البشريّة.

ولكن لقد نسي أولئك العلماء، أنّ مشكلة التّحيّز والأنانيّة تبدأ قبل أن تصبح تلك الوسائل في حيّز التّطبيق، إذ لا يمكن معرفة آراء النّاس في العدالة الاجتماعيّة، وفي التّعصب العنصريّ، والطّائفيّ، وفي الدّيمقراطيّة... عن طريق استخدام الإحصاء! لأنّ الأوهام، والفِكَرَ تظلُّ خامدةً جامدةً إذا لم تتّحد بالمصالح المادّيّة، ولم تظهر تأثيراتها في ضمائر النّاس، وأساليب عملهم، وتفكيرهم؛ ولا يمكن إدراك معاني الموضوعات إذا لم تتّصلب الأحوال النّفسيّة والمادّيّة، فمن المتعذّر في الحالة الاجتماعيّة إذاً الوصول إلى مجتمعٍ من دون أصنامٍ، أي مجتمعٍ موضوعيٍّ إذا لم تكن هناك حرّيّةٌ فكريّةٌ، يتمتّع بها المثقّفون لمناقشة ما يواجه الأمّة من مشكلاتٍ.

قلنا: إنّ الوصول إلى صورة كاملةٍ وحقيقيّةٍ عن الواقع الاجتماعيّ صعبٌ جدّاً، لأنّ النّاس يختارون من المحيط بعضاً من الحقائق التي تناسب أذواقهم، وأوهامهم، وأصنامهم، ويتركون الحقائق التي تناقض ذلك! ويشير وجود الصّنم أو الوهم إلى فئةٍ اجتماعيّةٍ يتبادل أعضاؤها العلاقات والصّلات، بحيث إنّ عمل كلّ فردٍ يؤثّر في أعمال الآخرين، ويوجّه فعاليّاتهم! فلابدّ من وجود معنىً مشتركٍ لهذا الصّنم بين السّدنة والأتباع، على الرّغم من أنّ علاقة كلّ واحدٍ بالصّنم، قد تكون ذات طبيعةٍ مختلفةٍ، تتراوح بين الجاه، والمال، والشّهرة، والمكانة الاجتماعيّة، والعضويّة في اللّجان، والنّوادي، والمؤسّسات الأخرى.

يخضع النّاس لقوىً غيرِ عقليّةٍ، وغير منطقيّة، ومن الصّعب جدّاً قياسها والسّيطرة عليها، فإن حدثت أَزَمَةٌ، واستولى الرّعب على النّاس، وارتفعت درجة الحرارة ووصل الأمر إلى الغليان، ولم يجد النّاس في الصّنم الذي يقدّسونه قدرةً على إنقاذهم، وتخليصهم... فإنّهم ينتظرون ظهور صنمٍ جديدٍ، يغدقون عليه أنواع الأوهام، والأخيلة، والخرافات.

قد يتخيّل المنافقون، وبعضٌ من السّذّج البسطاء من السّدنة أنّ الصّنم فوق مستوى البشر، وأنّه يأتي بالخوارق، ليركض وراءه النّاس من دون مناقشةٍ، لأنّه المنقذ الذي سيتمّ على يديه خلاصهم من الأزمة.

قلنا: إنّ حرّيّة الرّأي والمناقشة، يقضيان على نشاط الأصنام، وشيوع الأوهام، لأنّ الأصنام لا تسمو، ولا ترتفع عن طريق الانتخاب، والمناقشة، والمجادلة، وإنّما تَعِدُ النّاس اليائسين من الحالة وعداً مصحوباً بالقوّة والإلزام، فتحافظ على كيانها بالخضوع والطّاعة التّامّة؛ وفي الوقت الذي تتغيّر مصالح الأتباع، وتتبدّل الحالة، وتتحوّل الأسس الوجوديّة، تتعطّل الأصنام، وتنقطع الأوهام التي تتّصل بالحالة القديمة، لتحلّ محلّها أوهامٌ جديدةٌ، ولترتفع بدلاً من الأصنام القديمة أصنامٌ جديدةٌ، تنبثق من الحالة الجديدة؛ ولقد آمن النّاس بقوّة الدّين في العصور الوسطى، فَحَلَّ اليوم الإيمان بقوّة العقل والآلة.

عرّفنا (الموضوعيّة) بأنّها الواقع نفسه، بينما (الذّاتيّة) هي الصّور الذّهنيّة التي يحملها النّاس عن الواقع، وليس من السّهولة الفصل بينهما، بل إنّ الفصل

يعني تشويه الواقع والعملَ على إبهامه وغموضه. فإذا اتّفقت (الموضوعيّة) و (الذّاتيّة) وتطابقتا في الأسباب والنتائج، يصبح العمل منطقيّاً، وإذا تنازعتا، يكون العمل غير منطقيّ.

وقد ميز العالم الإيطالي "باريتو" بين الأهداف الذّاتيّة والموضوعيّة، واتّخذ من التّوافق والتّطابق معياراً لمنطقيّة العمل. وقال: إنّ (الغاية الشّخصيّة) هي ما يأمله الإنسان من حالةٍ تتحقّق فيها رغباته، ويُفترض بأن تكون تلك الرّغبات موضوعاً لعمله، وهو محاولته للقيام بالعمل، واختياره واستخدامه بعضاً من الوسائل، وإنجازه بعضاً من الخطوات التي يعتقد بأنّها تحقّق الوصول إلى الهدف الذّاتيّ. ولكنّ هذا الافتراض يصبح صحيحاً إذا كان حكم الإنسان على العلاقة بين الوسائل التي يستخدمها، والهدف، أو الغاية صحيحةٌ ومعقولةٌ. وينصّ على وجوب صيرورة الهدف (الموضوعيّ) هدفاً حقيقيّاً يدخل في حيّز اللّحظ والخبرة، وليس هدفاً وهميّاً وخرافيّاً.

يكون التّمييز والتّفريق بين الأعمال المنطقيّة وغير المنطقيّة بمجرد المقارنة بين نتائج اللّحظ من وجهتي النّظر الذّاتيّة والموضوعيّة، وقد فرّق "باريتو" بين الأعمال المنطقيّة وغير المنطقيّة بخضوع الأولى إلى التّعليل، وعَدّ الثّانية ناتجةً من اللّاشعور والعواطف، وجَعَلَ أمر الكشف عنها من اختصاص علم النّفس، لأنّها غير قابلةٍ للّحظ، وربط بين الأعمال المنطقيّة، والأوهام، والخرافات، والأحكام، الدّينيّة، والخُلُقيّة. **وقال بوجود (الرّواسب) التي لا تطابق الموضوعيّة والمقاييس العلميّة، وهي: رواسب الجمع والضّم، واستمرار**

**المجموعات البشريّة، ورواسب التّعبير عن العواطف بالأعمال المكشوفة، والقبول الاجتماعيّ، وتكامل الفرد واستقامته، والرّواسب الجنسيّة.**

وعلى الرّغم من أنّ قوّة هذه الرّواسب تختلف من وقتٍ إلى آخرَ، ومن فئةٍ اجتماعيّةٍ إلى أخرى، فإنّها عناصر ثابتةٌ في كلّ نظامٍ اجتماعيّ، حيث تنتج الرّواسب الأولى من جمعنا لبعضٍ من الموضوعات غير المنطقيّة، على الرّغم من محاولتنا لتقديم بعضٍ من الأسباب والمبرّرات، كالاعتقاد السّيء، والتّشاؤم من العدد ١٣ ومن عدّ بعضاً من الأيّام أيامَ نحسٍ، والأخرى أيّامَ سعادةٍ، أو الاعتقاد بشؤم بعضٍ من الحيوانات، والأشجار، والألوان، من دون أن يكون لهذا الاعتقاد أساسٌ تجريبيٌّ ومنطقيٌّ! ويلعب السّحر والشعوذة دوراً مهمّاً في هذه الرّواسب، وتقوم الأساطير والخرافات التي تُسبَغُ على الأصنام، والزعماء بواجبٍ كبيرٍ في تغطية الصّفات الصّنميّة الحقيقيّة. فمن الملحوظ ـ حتّى في الدّولة الدّيمقراطيّة ـ أن تُشاع حول زعيم الحزب السّياسيّ أوهامٌ وخرافاتٌ كثيرةٌ.

وتظهر الرّواسب الثّانية في خرافة سيادة وتفوّق عنصرٍ على عنصرٍ آخر، أو خرافة تفوّق بعضٍ من الأرساس في المقدرات العقليّة، فإذا أردنا دراسة الأصنام، والأوهام، والطّقوس الاجتماعيّة من الوجهة التّجريبيّة، تظهر إمّا مغلوطةً، أو أنّها غير قابلةٍ للإثبات، أو كليهما.

**اقترح "ابن خلدون" أربعَ طرائقٍ للتّخلّص من الأوهام والخرافات، وللتّمييز بين الأضاليل والحقائق، هي:**

**١- طبائع العمران ، أي تمحيص الأخبار بمعرفة طبائع العمران.**
**٢- استحالة مدلول اللّفظ وتأويلُه بما لا يقبله العقل.**
**٣- التّعديل والتّجريح للتّثبّت من صحّة الأخبار، لأنّ معظمها تكاليف إنشائيّة.**
**٤- المطابقة، أي إمكان وقوع الحوادث ومطابقتها للأحوال.**

واعتقد "ابن خلدون" أنّه باتّباع هذه الطّرائق يستطيع أن يميز الحقّ من الباطل في الأخبار، والصّدق من الكذب. ولكنّه لم يكن موفقاً في طرائقه! لأنّ الأوهام والتّحيّزات أجزاءٌ من طبائعنا البشريّة، ولهذا وجدنا الكاتب الفرنسيّ "سوريل" الذي كان متشائماً، ومتهكّماً، يقول: إنّه لم يلقَ في الطّبيعة، ولا في المجتمع أيّ نظامٍ، أو ذكاءٍ، وإنّما إراداتٌ عمياءُ، ولم يكن يؤمن بالعقل، وإنّما يؤيّد أنّ فكرة وجود (خرافةٍ) أو (أسطورةٍ) بحثٌ موضوعيٌّ؛ وقد أثّر "سوريل" تأثيراً كبيراً في الحركة الفاشيّة، وفي "**موسوليني**" الذي اعتقد بأنّ أكثر الخرافات أهمّيّة هي (**الأمّة**)! لأنّها فوق العقل، وأنّها خَلْقٌ(**اللّدنيّة**) أو الإرادة من أجل الحصول على السّلطة.

**أعلن "موسوليني" في خطاب ألقاه في نابّولي، سنة ١٩٢٢ بقوله: إنّنا خلقنا خرافتنا، فالخرافة عقيدةٌ وشعورٌ، وليس من الضّروريّ أنّها ستكون في يومٍ**

**من الأيّام حقيقةً واقعيّةً، ولكنّها على الرّغم من ذلك هي حقيقةٌ، لأنّها أملٌ، وعقيدةٌ، وشجاعةٌ، إنّ خرافتنا هي أمّتنا، خرافتنا عظمة أمّتنا.** وإنّ الخرافة هي غذاءٌ معنويٌّ لجماهير النّاس.

ونتيجةً لذلك قويت معرفتنا بالخرافات والأوهام الاجتماعيّة، وتجمّعت وظهرت، فأصبحت تؤثّر حتّى في معرفتنا بالحقائق العلميّة، أضف إلى ذلك أنّ الشّكّ والحيرة في إمكان الفصل بين الأصنام والمعرفة الموضوعيّة، لا يظهران دليلاً على وجود تنظيمٍ في المجتمع قائمٍ على أساسٍ عقليٍّ ومنطقيٍّ.

من المألوف أن تميل الأصنام إلى الاستقرار والثّبوت، والتّمسّك بأهداف السّلطة والنّفوذ، وأن تدّعي القدسيّة، على الرّغم من أنّ الأسس الوجوديّة التي استقرّت عليها تميل في طبيعتها إلى الحركة والتّبدّل، وتظهر بالنّتيجة الأوهام، والأساطير، والخرافات الجديدة، فتحاول أن تجعل من التّقاليد القديمة أضحوكةً، وموضوعاً للهزء والسّخريّة، ومن قواعد السّلوك الماضية فراغاً، وتتيح الفرصة لبروز أقنعةٍ جديدةٍ تستر فيما وراءها كثيراً من المصالح، فتحتاج إلى تدريبٍ طويلٍ للوصول إلى الموضوعيّة في البحث.

عندما تتغيّر الأسس الوجوديّة، وتتنازع الأصنام فيما بينها على السّلطة، تظهر زُمَرٌ جديدةٌ تحيط بالأصنام المتصاعدة، وتختفي زمرٌ قديمةٌ من المسرح، **ما عدا بعضٍ من الأعضاء الذين يستطيعون أن يبدّلوا وجدانهم، ويعبثوا بضمائرهم، ويغيّروا مواقفهم للسّير وراء الصّنم الجديد، لحرق البُخُور،**

والتّسبيح بحمده، ويبدأ بعضٌ من النّاس في النّظر إلى الآخرين من خلال مصالحهم المتركّزة حول الصّنم.

يميل كثيرٌ من الباحثين إلى الشّكّ في إمكان الحصول على معرفةٍ موضوعيّةٍ منعزلةٍ ومستقلّةٍ عن كلّ تأثيرات الأصنام، لأنّ الأصنام تعيش في الضّمائر، وهي الرّموز المقدّسة ذات السّلطة التي توجّه سلوكنا، وتحدّد قيمنا، وتؤثّر في طبيعتنا، بل هي رمز الوجدان الجماعيّ الذي يحرّك المجتمع؛ وقد انقسم المجتمع إلى فئاتٍ متنازعةٍ، بحيث اتّخذت كلّ فئةٍ مجموعةً من الأوهام والأساطير ورمزت لها بصنمٍ لتدافع عن مصالحها، إذ نستطيع أن نرجع كلّ وهمٍ أو أسطورةٍ إلى فئةٍ اجتماعيّةٍ خاصّةٍ بعد دراسة طبيعة تلك الفئة والدّور الذي تقوم به، هذا مع علم أنّ بعضاً من الأوهام قد تتعدّى نطاق فئةٍ واحدةٍ، فتشتمل على كلّ الفئات في المجتمع، مثل أوهام البراهمة الخاصّة بالقدسيّة والسّلطة المقبولة من قِبَل الطّوائف الهنديّة كافّةً، على الرّغم من سموّاً ووضاعةٍ مكانتها! وتضع تلك الفئة أقنعةً تستر بها امتيازاتِها ومصالحَها، فعلينا إذاً تمزيق هذه الأقنعة التي تستر الواقع للتّأكّد من المبرّرات، والمسوّغات، والأحكام الخُلُقيّة التي وُضعت للدّفاع أو التّبرير.

ولكن قد تَحُولُ قناعاتنا وأقنعتنا الشّخصيّة، وأحكامُنا الخُلُقيّة دون رفع البراقع التي تخفي الدّوافع الحقيقيّة، ولأجل أن نتغلّب على هذه الصّعوبة، يجدر بنا أن ننزع أقنعتنا الشّخصيّة، ونتخلّى عن قناعاتنا المسبّقة، قبل أن نبدأ بكشف أقنعة الآخرين، وبمعنىً آخرَ، يجب أن نكون قادرين على العروج عن

**أنفسنا، ووضعها على طاولة التّشريح والتّحليل، حتّى نتعلم كيف نشرّح الآخرين ونحلّلهم.**

تتطلّب (الموضوعيّة) أن نخرج عن أنفسنا، وأن نضع أوهامنا وتحيّزاتِنا على طاولة التّشريح والتّحليل، لنتمكن من أن نضع أنفسنا موضع الآخرين، لنتعرّف على أوهامهم وتحيّزاتهم؛ وبمعنىً آخرَ، إذا غيّرنا الفئة الاجتماعيّة التي ننتمي إليها، فتبدّلت قواعد الوجود الاجتماعيّ، فمن المنتظر حينئذٍ أن تتغيّر أساليبُ العمل، والتّفكيرُ، والأوهامُ، والأصنامُ، أي بفضل المقارنة والمعارضة بين مجاميعَ مختلفةٍ من الأوهام، نستطيع أن نزيل الأقنعة التي تخفي وراءها الدّوافع الحقيقيّة.

يتقدّم "كارل مانهايم" بحلّيْن للأَزَمَة التي نشكو من وطأتها على الفكر، هما **النّسبيّة، والعلائقيّة**، حيث تنكر النّسبيّة وجودَ حقائقَ أزليّةٍ ثابتةٍ، وتدّعي عدم قدرتنا في الحصول على معرفةٍ مستقلّةٍ ومنعزلةٍ عن كلّ وهمٍ وأسطورةٍ، ويقول: **إنّ الحقائق نسبيّةٌ، وإنّ الموضوعات لا تؤدّي المعنى ذاته للنّاس كافّةً، وإذا ما أردنا أن نجرّد المعرفة من كلّ الأوهام والأساطير والأحكام الخلقيّة... فإنّها لا تصبح معرفةً تاريخيّةً اجتماعيّةً، فإن كانت متأثّرةً بالعوامل الاجتماعيّة، فلا يمكن أن تكون ثابتةً وصحيحةً.**

وتؤكّد (**العلائقيّة**) على عدم وجود حقائقَ منفصلةٍ ومستقلّةٍ عن الواقع الاجتماعيّ، وعلى روابط الاختلاف، والتّعاقب، والتّداخل، و. العِلّيّة . التي

تتضمّنها العلاقات البشريّة، فمن الضّروريّ أن نكشف عن العلاقة الموجودة بين أنواع الأوهام المختلفة، وبين أساليب العمل؛ وبمعنىً آخرَ، إنّ الفكر نفسَه، ما هو إلّا آلةٌ يتصرّف الإنسان بها في مختلِف الطّرائق، كخلق الأوهام، والأساطير، والخرافات، والآراء، والفِكَر، وذلك لحل المشكلات التي تعترض حياته. وافترض "**مانهايم**" أسلوباً آخرَ لتحقيق **(الموضوعيّة)** يتركّز في **(الإجماع على الرّأي)** أي إنّ النّاس يَصِلُون إلى الحقائق ذاتها، بغضّ النّظر عن اختلاف الفئات التي ينتمون إليها، والمكانات الاجتماعيّة التي يشغلونها، ووجهاتِ النّظر التي يعتنقونها، والمصالحِ التي يريدونها.

والذي يبدو لنا، هو أنّ هذا الحلّ الخياليّ غير ممكنِ التّطبيق! لأنّنا سلّمنا مقدّماً بأهمّيّة الأسس الوجوديّة في تكوين الأوهام وتوجيهها، ولكنّ "مانهايم" لم يكن موفّقاً في تخليص المجتمع من الأصنام والأوهام في حلوله اليسيرة هذه؛ فلو فرضنا أنّنا تأكّدنا من أنّ الرّأي أو الوهم أو الخرافة الفلانيّة، تتّصل بفئةٍ اجتماعيّةٍ معيّنةٍ، فإلى أيّ شيءٍ نصل من بعد ذلك؟ إلى صحّته أو خطئه؟!وإنّ من المفروض أن يعلّمنا الوهم الشّيء الكثير عن تكوين تلك الفئة الاجتماعيّة، وطبيعتها، وتوجيهها. ثمّ إنّنا لو فرضنا أنّنا وصلنا إلى معرفة أنواع الأوهام والأساطير الموجودة في المجتمع، فماذا تفيدنا هذه المعرفة؟ و هل من الممكن أن نكوّن وهماً عامّاً وشاملاً أو خرافةً واحدةً توفّق بين الأوهام المتنازعة كافّةً - أي العمل على تكوين أسطورةٍ واحدةٍ تقلّل من التّصادم والتّنازع؟.

وهكذا تكون النّتيجة أنّنا لم نقضِ على الأوهام والأصنام، وإنّما حوّلنا انتباه النّاس من الأوهام الصّغيرة إلى وهمٍ كبيرٍ شاملٍ، أو بالأحرى، خلقنا مركزين للوهم، وأوجدنا محلّين للأصنام، أحدهما يتعلّق بكلّ فئةٍ صغيرةٍ، والآخر يشتمل على المجتمع بأجمعه، ولكنّنا ننسى أنّ الواقع ذاته غيرُ ثابتٍ، وأنّه دائماً وأبداً في حركةٍ مستمرّةٍ، ولا يوجد في الواقع مجموعةٌ من الموضوعات الخالدة، وإنّما من عمليّات صيرورةٍ دائبة الحركة.

ويقول الفيلسوف الأميركيّ "جون ديوي": إنّ طبيعة الإنسان، أوّلاً وقبل كلّ شيءٍ، هي تعبيرٌ عن المؤسّسات الموجودة في المجتمع، فلا يمكن إذاً معرفة أحدهما إذا لم نأخذ بالنّظر وجودهما معاً.

وتعترض "مانهايم" مشكلةٌ كبرى في تفسير محاولة المجتمع لوضع وجهة النّظر الشّاملة الكبرى! فأيّة فئةٍ في المجتمع تستطيع أن تقوم بهذه المهمّة الخطرة؟ وبمعنىً آخرَ، أيّة فئةٍ تكون في مركزٍ يتسامى، ويتفوّق على وجهات النّظر المتنازعة والمتعارضة، لتستطيع صوغ وجهة نظرٍ واحدةٍ لها الإمكان أن توفّق بين الأوهام المتنازعة؟ فليس من المعقول أن تكون إحدى الفئات ذات المصالح المتنازعة!.

يعتقد "مانهايم" بوجود فئةٍ تحتلّ مكانةً وسيطةً، تحاول أن تعمل على استقرار الحالة الرّاهنة، وتحمي منافعها من هجمات اليمين واليسار، وإنّ الفئة التي ننتظر منها انبثاق وجهة النّظر الشّاملة هي فئةٌ متحلّلةٌ من كلّ رباطٍ،

ولكنّها لم تتكوّن بعدُ بصورةٍ ثابتةٍ في النّظام الاجتماعيّ، دعاها "مانهايم" فئةَ المثقّفين المستقلّين اجتماعيّاً، عن كلّ الفئات المتنازعة على السّلطة والقدسيّة.

ومع ذلك فليس المثقف ذا وجود ميتافيزيقيّ، فهو مواطنٌ عليه حقوقٌ والتزاماتٌ يجب أن يضطلع بها، وعليه أن يرتبط بولائه نحو وطنه، فلا يمكن أن يتعدّى في الولاء حدود وطنه، وهكذا يصبح وجود مثل هذه الفئة غيرَ ممكنٍ.

**فمن الخرافة أن نتصوّر مجتمعاً من دون سيطرةٍ وقدسيّةٍ لبعضٍ من الموضوعات، ومن الخَطَل أن يدور في أخيلتنا الوهم القائل بإمكان تأسيس مجتمعٍ قائمٍ على العقل والتّبصّر فقط، وإن قيام أيّة جماعةٍ، مهما كان حجمها، ومهما كانت درجتها من التّطوّر، يتطلّب وجود مجموعةٍ من القيم، والمقاييس، والأوهام التي توجّه وتحدّد سلوك النّاس وأساليبَ عملهم، وتفكيرَهم،** إلّا أنّ الدّائرة التي تمنحها الجماعة للفرد وتجعلها نطاقَ عمله، تضيق وتتّسع وَفقاً للأسس الوجوديّة لتلك الجماعة، فهي واسعةٌ ومطّاطةٌ في المجتمع الدّيمقراطيّ، وضيّقةٌ وظاهرةٌ في المجتمع الإقطاعيّ- الدّكتاتوريّ. ولا يمكن أن يقوم المجتمع من دون نظامٍ في الحقوق والواجبات، ومن التّدرّج في المسؤوليّات والصّلاحيات، ولو أنّ الأسس التي يقوم عليها ذلك النّظام تختلف بالنّسبة لطبيعة المجتمع، فقد تكون الثّروة، أو الإنجاز في صالح المجموع، أو القيام بالعبادات والطّقوس، أو قتل الثّيران، أو تقديس النّسانيس والفئران، أو عبادة الحجر، أو عبادة الزّعيم؛ فمهما اختلفت الأسس،

الاقتصاديّة، أو الدّينيّة، أو الاجتماعيّة، أو السّياسيّة، فمن الضّروريّ أن توجد وسائل للسّيطرة الاجتماعيّة، كالعادات، والتّقاليد، والآداب، والأخلاق، والدّين، والقانون، وغيرها... تفرض على الأفراد أنواعاً من السّلوك، وتطلب إليهم اتّباعها، وتحيط تلك الأنماط بهالةٍ من التّقديس والاحترام.

تتوافر الأسس الوجوديّة لظهور الأصنام في الحياة الاجتماعيّة التي تتطلّب نوعاً من القسر، والزّجر، والتّقديس، والاحترام، فلا يمكن استئصال جذورها بالرّجوع إلى العقل فقط، وقَطْعِ دابر التّحيّز والأنانيّة، كخطوةٍ أساسيّةٍ لإنماء المعرفة وازدهارها.

يربط بعضٌ من الباحثين بين طبيعة الإنسان، وبين القوّة العاقلة التي لدى الإنسان، ولكنّ هذه القوّة هي التي تخضعه لأوهام المجتمع، وقيَمِه، ومقاييسه، ويدّعي هؤلاء أنّ وجود اللّوم الاجتماعيّ من جهةٍ، والاستحسان والتّقدير من جهةٍ أخرى، حدّد سلوكنا بدائرةٍ خاصّةٍ لا يمكن الخروج منها، ونصطدم هنا بحقيقةٍ مُرّةٍ هي: هل نؤمن بوجود بعضٍ من القيم الخالدة الأزليّة التي تتعدّى حدود الزّمان، والمكان، والحالات الاجتماعيّة، وتبدّلها، فإذا كان الأمر الثّاني، فلابدّ من أن يَكثر النّفاق، والمجاملة، والمراوغة، أضف إلى ذلك أنّ هذه النّسبيّة القائلة (ألبس لكلّ حالةٍ لَبُوسها) دعت إلى تمجيد الدّوافع الأساسيّة (كالدّوافع الجنسيّة) وضرورةِ التّنفيس عنها بغضّ النّظر عن القيم الخُلُقيّة، وبمعنىً آخر، ينتقل مركز اهتمام الفرد من الجوّ الاجتماعيّ إلى الحياة الدّاخليّة الفرديّة.

ولمّا كان القضاء على الأصنام الاجتماعيّة بكلّ أنواعها، المؤسّسة على الثّروة والمبادئ السّياسيّة مثلاً، غيرَ ممكنٍ فمن الواجب العملُ على تقليل سيطرتها ونفوذها، ليتسنّى للأفراد أن يعبّروا بكلّ حرّيّةٍ عن آرائهم وأفكارهم، وأن يطمئنوا رغباتهم، حتّى لا تصبح الحياة عبئاً ثقيلاً. ويؤكّد المحلّلون النّفسيّون على أهمّيّة التّحليل النّفسيّ في التّخفيف من غلواء السّيطرة التي تتمتّع بها الأصنام بإتاحة الفرصة للمرضى النّفسيّين، أن يتعقّبوا جذور اضطراباتهم العاطفيّة بحُرّيّةٍ، ليتعرّفوا على مصدر العقد النّفسيّة، لينفّسوا عنها ضمن الوسائل والأساليب المقبولة اجتماعيّاً.

ويدّعي آخرون أنّ الطّريقة الوحيدة للقضاء على الأوهام والخرافات، هي تغيير واقع الحال، وتخطيطه وتصميمه وفقاً للأساليب العقليّة التي تكون في صالح الجميع، وليس في مصلحة فئةٍ معيّنةٍ، أو بطريق تغيير مؤسّساتنا التّربويّة، ولكنّ كل هذه الحلول لا تقضي قضاءً نهائيّاً على الأوهام والأصنام، فالفرد مضطرٌ إلى قبول بعضٍ من أنواع الوهم، والتّحيّز، والتّعصّب، ليصبح إنساناً، وعضواً في الهيئة الاجتماعيّة. فإذا كان النّزاع قائماً بين الأفراد والأصنام، فمن الضّرورة فسح المجال أمام الحرّيّة الفرديّة، فلو طغت أصنام المجتمع على الأفراد لأصبح المجتمع الإنسانيّ راكداً وساكناً.

**فكلّما اتّسع مجال الحرّيّة الفرديّة، تزداد الحركة والحياة وينشط النّموّ في المجتمع، فمن أجل السّير بالمجتمع قُدُماً، يجب أن تتضافر الجهود على التّقليل من شأن الأصنام، وتحرير العقول من الأوهام والخرافات، ولكنّ الفيلسوف**

**"شبنجلر" يعتقد بأنّ الحضارة تنبثق من خرافةٍ عظيمةٍ، حيث يعمر الإيمان القلوب، وتسطير العقيدة، فيمهّدان الطّريق لظهور النّظام الإقطاعيّ المتميّز بوجود النّبلاء والقساوسة، وتظهر القرية، وإذا مرّت الحضارة في دور العنفوان والشّباب، ازدهر الإبداع الفكريّ، و وصلت الرّياضيّات القمّة، ونشأت المدن، وتقبض الطّبقة الوسطى على زمام السّلطة، وأخيراً تأخذ الحضارة بالانهيار، وتزول نضارتها، فيمرّ النّاس في حقبةٍ من الدّيمقراطيّة، يتوهّمون في ظلّها الحرّيّة التي يعقبها الحكم الدّكتاتوريّ، فتكون النّهاية ظهور المدن الجبّارة وسيطرة دكتاتوريّة المال، وما إنْ تلبث الحضارة على هذه الحال حتّى تظهر خرافةٌ جديدةٌ.**

يعتقد بعضهم بأنّ القضاء على التّحيّز والتّعصّب والأنانيّة، ممكنٌ إذا اتّبعنا الطّرائق العلميّة في الحصول على الحقيقة، والتّمييز بين المعلومات المشوّهة المزيّفة التي يروّجها المغرضون، فيتقبّلها النّاس من دون تمحيصٍ ولا تدقيقٍ، حيث يؤمن هؤلاء بأنّ تغيير الحالة الاجتماعيّة المادّيّة التي انبثقت منها أنواع التّحيّز والأوهام كافّةً، هو الذي يكفل القضاءَ على الرّياء والنّفاق؛ ويؤكّدون على أنّ الأوهام والتّحيّزات أقنعةٌ تخفي الامتيازات التي تتمتّع بها الأصنام والسّدنة، وتستر تلك السّلطات التي تدافع عنها بكلّ وسيلةٍ ممكنةٍ.

إنّ البحث في التّحيّز والتّعصّب بكلّ أنواعه، العنصريّ، والدّينيّ، والطّائفيّ، واللّغويّ، والإقليميّ، والعائليّ، والاقتصاديّ... مفيدٌ في معرفة المظاهر النّفسيّة للعلاقات والصّلات القائمة بين الفئات الاجتماعيّة، وفي

إدراك أسباب ميل الأفراد لأن يتحاسدوا، ويتباغضوا، ويتنافسوا، أو أن يتوافقوا، وينسجموا للعمل معاً في مجالاتٍ متعدّدةٍ، كالحزب، والنّادي، والجمعيّة، وغيرها.

لهذا ينصبّ اهتمامنا على كلّ أنواع التّنظيم الاجتماعيّ، كالعائلة، والقبيلة، والنّادي، والحزب، والطّائفة، والأمّة، والإقليم، حيث يتباهى الأفراد، ويعتزّون بمختلف الأوهام والخرافات، ويقدّسون أصناماً خاصّةً بكلّ نوعٍ من التّنظيم الاجتماعيّ، وهي الأصنام التي تقرّر مواقف الأفراد في مختلف القضايا، وتعيّن وجهاتِ نظرهم. **ومن خصائص الصّنم أن يجزّأ الأمّة، وأن يغذّي التّنافر والتّباغض، حيث يضطر الأفراد إلى أن يدافعوا عن أوهامهم وأصنامهم، وأن يعملوا على تقويض أصنام الآخرين وتبديد أوهامهم.**

يؤكّد بعضٌ من علماء الاجتماع على الفكرة القائلة: إنّ المجتمع الحديث جعل لكلّ فرد عدداً من الأنفس، يسلك سلوكاً خاصّاً في كلّ منها، لأنّه ينتمي إلى فئاتٍ مختلفةٍ ومتباينةٍ، حيث لكلّ فئةٍ وجهة نظرٍ خاصّةٌ، فقد يكون موظّفاً، وعضواً في حزبٍ، أو نادٍ، أو شركةٍ، أو جمعيّة؛ وأباً، وزوجاً، وهو في كلّ مظهرٍ من هذه المظاهر، له موقفٌ خاصٌّ ليس من الضّروريّ أن يكون منسجماً ومتوافقاً مع أدوار الأنفس الأخرى! وهذا ما يدعو إلى الاختلاف والتّباين في السّلوك والآراء، ويدعو إلى التّلوّن؛ والسّبب في تعدّد هذه الأنفس، هو أنّ كلّ واحدٍ منّا ينتمي في مجتمعنا الحديث إلى فئاتٍ متعدّدةٍ متنازعةٍ على السّلطة القدسيّة، وإذا لم يكن الفرد قادراً على التّوفيق بين سلوكه وأعماله، وبين

الفئات المختلفة التي ينتمي إليها، فإنّه يشكو تناقضاً وتعارضاً نفسيّاً، مثل "روبسبير" الذي كان يبكي ويذرف الدّموع في داره حين يقرأ الرّوايات العاطفيّة، **لكنّه كان يختلف عن "روبسبير" الذي لا رحمة ولا شفقة عنده في المؤتمر أثناء الثّورة الفرنسيّة!** فإذا عَدَدْنَا شخصيّة الفرد الجانبَ الذّاتيّ من التّكوين الحضاريّ الاجتماعيّ، وأنّ تلك الشّخصيّة مركّبةٌ من أنفسٍ عدّةٍ، وأنّ كلّ نفس تقوم بدورٍ، وأنّ كلّ دورٍ يتّصل بفئةٍ اجتماعيّةٍ كالعائلة، والطّائفة، والحزب السّياسيّ، والنّادي، والجمعيّة، وأنّ كلّ فئةٍ تؤثّر في آرائنا، وعقائدنا، وقيمنا، ومعاييرنا، وعواطفنا، ورغباتنا... فلا غرابة إذاً إذا تعارضت مقاييسنا الخُلُقيّة بعضُها مع بعضٍ، وتباينت أنماط سلوكنا، وتعوّدنا على السّلوك الحَربائيّ المتلوّن! ولمّا كان لكلّ فئةٍ من هذه الفئات امتيازاتٌ ومصالحُ قد تتعارض وتتصادم مع امتيازات ومصالح الفئات الأخرى، فلابدّ من أن تؤثّر في استقامة الفرد وفي سلوكه! ولهذا السّبب نجد التّناقض والتّلون في سلوك النّاس وأعمالهم.

لنأخذْ مثالاً على ذلك الفيلسوف "**هيغل**" فعندما كان يتكلّم عن الدّولة البروسيّة، كان يريد أن يجعل منها الهدف الأسمى والغاية القصوى للتّاريخ العالميّ، وحينما كان يبحث في الإنسانيّة جمعاء، كان يؤكّد على وجوب إقامة محكمةٍ دَوْلِيَّةٍ تشرف على الدّول كافّةً.

ولمّا كان من المتعذّر على الفرد أن يتمثّل الأدوار الاجتماعيّة كافّةً، وأن ينتمي إلى كلّ الفئات، فلابدّ وأن يختار بعضاً منها، ويرفض الآخر، وعندما يتمّ

الاختيار، يشتدّ تحيّز الفرد، وتعصّبُه لبعضٍ من القيم، والمقاييس، والآراء، ويزداد تلوّنه، ويحاول أن يخلق الأوهام والأساطير والخرافات لتبرير كيان تلك الفئة، وقدسيتها وسلطتها.

**إنّ السّبيل الوحيد لتحقيق الوصول إلى مجتمعٍ من دون أصنامٍ، هو طريق الحرّيّة الفكريّة، والمناقشةُ، والجدل، والتّناقض، حتّى لا يكون الأفراد عبيدَ الفِكَر، وأوهامٍ وأصنامٍ لا تخضع للبحث العلميّ والمنطق.**

## قائمة إصدارات المركز الأكاديمي للأبحاث

●**نقد الرواية التاريخية ، عصر الرسالة أنموذجا ،د.عبد الجبار ناجي،** ٣١٨ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٠، بار كود(ISBN):3-762-88-9953-978 .

●**التشيع والاستشراق عرض نقدي مقارن لدراسات المستشرقين عن العقيدة الشيعية وأئمتها، د.عبد الجبار ناجي،** ٤٨٠ صفحة قطع متوسط ،الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٠، بار كود(ISBN):9-760-88-9953-978 .

●**محمد والفتوحات، فرانشيسكو كبريلي، ترجمة:د. عبد الجبار ناجي،** ٤١٦ صفحة قطع متوسط،الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٠، باركود(ISBN):6-761-88-9953-978 .

●**أبحاث في التاريخ الإسلامي، د. جواد علي، دراستومراجعة: د. نصير الكعبي،** ٥٣٦ صفحة قطع كبير(وزيري)، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٠، بار كود(ISBN):7-764-88-9953-978 .

●**أبحاث في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، دراسة ومراجعة : د. نصير الكعبي،**٥١١ صفحة قطع كبير(وزيري)، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٠، بار كود(ISBN):0-763-88-9953-978 .

●**الـــــيزيديون وأصـــولهم الدينية ومـــعابدهم والأديرة المسيحـــية في كــــردستان الــــعراق، توماس بوا، ترجمة : سعاد محمد خضر،** ١٩٠ صفحة قطع متوسط،الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣، الطبعة الثانية ٢٠١٦، بار كود (ISBN):9-757-88-9948-978 .

●**كنيسة المشرق. التاريخ. العقائد. الجغرافية الدينية، الأب الدكتور يوسف حبي،** ٥١٤ صفحة، قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣، باركـــود(ISBN):2-7756-88-9948-978 .

●**يهود كـــــردستان ورؤســـائهم القـــبليون (دراسة في فــــن الـــبقاء)، مردخـــاي زاكن، ترجمة: سعاد محمد خضر،** ٤٦٢ صفـــحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣، بار كود (ISBN):5-755-88-9948-978 .

●المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن، جولد زيهر، ترجمة حسن عبد القادر، ١٨٢ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى٢٠١٣، الطبعة الثانية ٢٠١٦، بار كود(ISBN): 8-754-88-9948-978.

●أذربيجان في العصر السلجوقي ، د. حسام الدين علي غالب النقشبندي ، ٤٢٠ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣، بار كـــــــــــود: (ISBN) 1-753-88-9948-978.

●عبد الكريم قاسم في ضوء ملفته الشخصية ، د. عماد عبد السلام رؤوف ، ٢١١ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣، بار كـــــــــــود(ISBN): 4-752-88-9948-978 .

●كعب الأحبار: مسلمة اليهود في الاسلام،اسرائيل ولفنسون( أبو ذؤيب)،١٥٣ صفحة ، قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠،الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣، الطبعة الثانية ٢٠١٦، بار كود(ISBN): 7-751-88-9948-978.

●المفصل في نشأة النوروز اللهنية الابداعية . دراسة في فكرة الأعياد الشرقية، د. حسين قاسم العزيز،٤٢٦ صفحة، قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣،بار كود:(ISBN) 0-750-88-9948-978.

●معـــرفة الشرق في العصر العـــثماني، الـــرحلة الايـــطالية إلى العـــراق،الأب د.بطرس حداد، ترجمة عن الإيطالية،١٧٤ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣، باركود(ISBN):4-749-88-9948-978 .

●المغول التركية الـــدينية والسياسية، بروفسور شيرين بياني، ترجمه عن الفارسية : سيف علي، دراسة ومراجعة: د. نصير الكعبي، ٥٥٧ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣، بار كود(ISBN):7-748-88-9948-978 .

●الحركات الدينية في إيران في القـــــرون الإســـلامية الأولى، د. غلام حسين صديقي،ترجمه عن الفارسية د. نصير الكعبي، ٤٤٢ صفحة، قطع متوسط،الورق بلكي سمك ٧٠،الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣، باركود (ISBN):0-747-88-9948-978 .

●الألم الخلاصي في الإســـلام ، دراســـة في المـــظاهر الـــدينية لمـــراسم عاشـــوراء عنـــد الشـــيعة الامامية، بروفسور محمد أيوب، ترجمه عن الانكليزية: الأب أمير جبجي

**الدومنيكي**،٣٣٧ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣ ، الطبعة الثانية ٢٠١٦، باركود (ISBN):743-88-9948-978 .

●**الاستشراق في التاريخ: الاشكاليات، الدوافع ، التوجهات . الاهتمامات، د. عبد الجبار ناجي**،٥٨١ صفحة قطع كبير(وزيري)، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣ بار كود(ISBN) : 6-745-88-9948-978.

●**المدارس التاريخية الإسلامية مدرسة البصرة أنموذجا، د. عبد الجبار ناجي**،٣٦٥ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣ بار كـــــــــود (ISBN): 9-744-88-9948-978.

●**تاريخ اليهـــود في بـــــلاد العـــرب، اســـرائيل ولفـــنسون(أبو ذؤيب) ، ترجمة د. مصطفى جواد**،٢٦٠ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣، الطبعة الثانية ٢٠١٦، بار كود(ISBN): 2-743-88-9948-978.

●**المعـــتقدات الـــدينية في الـــــعراق القديـــــم، د. سامي سعيد الأحمد**، ١٦٥ صفحة، الورق بلكي سمك ٧٠،الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٣،بار كود: 978-9948-88-742-5(ISBN) .

●**الـــديانات الشـــرقية القـــديمة: الـــزردشتية والمانوية، بروفسور سيد حسن تقي زاده، د. محمد مهدي ملايري**، ١٦٦ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٤، بار كود: 978-0-9921030-3-3(ISBN) .

●**الطوفـــــان في المصادر الســــومرية . البابلـــية . الآشورية . العبرانية،أ. فؤاد جميل**،٨٤ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الطبعة الأولى ٢٠١٤، بار كود(ISBN):2-0-9921030-0-978.

●**الامومة عند العرب دراسة في أنماط الأنوثة والنكاح،المستشرق الهولندي ج.أ.أويلكين**،٩٦ صفحة، قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٤، بار كود(ISBN)2-02-927946-1-978.

●**البلاط و المجتمع الإسلامي وعلم التاريخ: دراسة في سيسيولوجيا الكتابة عند المسلمين،المستشرق البريطاني جسي روبنسون، ترجمه عن الانجليزية د. عبد الجبار ناجي**،٤٨٧ صفحة قطع متوسط،الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٤، بار كـــــــــود(ISBN):.9-1-9921030-0-978.

**●تاريخ الإلحاد في الإسلام، الدكتور عبد الرحمن بدوي،**٢٥٣صفحة قطع متوسط،الورق بلكي سمك ٧٠،الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٤، الطبعة الثانية ٢٠١٦، بار كـــــود (ISBN):978-0-9921030-6-4

**●الصابئة المندائيون الأصول . الشرائع . الكتاب المقدس، الأب انستاس ماري الكرملي.** ١١٠صفحة، قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٤، بار كود(ISBN):978-0-9921030-4-0.

**●معرفة الشــــرق في العصـــر العثماني الــرحلة الــفرنسية إلى العراق ، الرحالة أوليفييه، ترجمه عن الفرنسية:الأب د.يوسف حبي،** ٢٩٢ صفحة قطع ،الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٤، باركود(ISBN):978-0-9921030-8-8.

**● الابل والخـــيل في العالم الشـــــرقي القديم ، أ. رضا جواد الهاشمي،**١٠٦ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٤، باركود (ISBN):978-1-927946-01-5.

**●الحركات الاجتماعية في القرون الإسلامية الأولى، رضا رضا زاده لنكرودي، ترجمه رحيم حمداوي، راجعه وقدم له د.نصير الكعبي،**٤٠٩ صفحة قطع متوسط،الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٤، بار كود(ISBN):978-0-9921030-2-6.

**●دراسات عن أساطير شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام :مدخل لفهم معتقداتهم ، الدكتور حسين قاسم العزيز** ٤٠٤ صفحة، قطع متوسط، الورق ، بلكي سمك ٧٠،الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٤، باركود (ISBN)978-0-9921030-7-1.

**●مملـــــكة كندة في شبـــــه الجزيرة العربية،المستشرق الهولندي جونار اولندر،** ٢٨٥ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٤، باركود (ISBN):978-1-927946-00-8.

**●مكـــــة في الـــدراسات الاستشراقية، المستشرق البلجيكي الأب لامانس،المستشرق البريطاني البروفسور كستر،**٢٣٩ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٤، بار كود(ISBN):978-0-9921030-9-5.

**●بغداد في القرون الوسطى، البروفسور جورج مقدسي،**١١٠ صفحة، ترجمة :د.صالح احمد العلي صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠،الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٤، بار كود(ISBN):978-0-9921030-5-7.

●**أطلـــــس الشيـــعة:دراســــة في الجــغرافية الدينية للتشيع، د. رسول جعفريان ، ترجمه د. نصير الكعبي، سيف علي**،٦٠٠ صفحة قطع كبير A4 ، الورق مات ملون سمك ١٥٠غم، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٤، الطبعة الثانية ٢٠١٥، بار كود (ISBN): 978-1-927946-14-5.

●**شخصـــيات قلقـــة في الإســـلام، دراسة ألف بينها وترجمها د. عبد الرحمن بدوي**، ٢٥١ صفحة قطع متوسط ، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود (ISBN): 978-1-927946-03-9.

●**عقـــوبات العـــــرب في جـــاهليتها، للعلامة السيد محمود شكري الألوسي، حققه وشرحه محمد بهجت الأثري**، ٨٠ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود (ISBN):978-1-927946-04-6

●**كنائـــس بغـــداد وදياراتها، الأدب الدكتور بطرس حداد**، ٢٧١ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود (ISBN):978-1-927946-05-3.

●**المعجـــم الـــمفصل بأسماء الملابس عند العرب، للمستشرق الهولندي ريهان دوزي، ترجمة الدكتور أكرم فاضل**، ٣٥٤ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود (ISBN):-978-1-927946-06.

●**معرفة الشرق في العصر العثماني (مذكرات السفير الأمريكي في الآستانة)، المستر هنري مورغنتو، تعريب فؤاد صروف، عني بنشره يوسف توما البستاني**، ١٨٩ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود (ISBN):978-1-927946-07-7.

●**معـــرفة الشرق في العصـــر العثماني (مغامرات الكولونيل لجمن في شبه الجزيرة العربية) ، ترجمة سليم طه التكريتي**، ٧٨ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود (ISBN):978-1-927946-15-2.

●**الإسلام المبكر في أربع نصوص يهودية، تأليف مجموعة من المؤلفين، إعداد نبيل فياض**، ١٦١ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود (ISBN):978-1-927946-09-1.

**●أحــــــوال نصارى بغداد في عصر الخلافة العباسية، تأليف رفائيل بابو اسحاق،** ٢٦١ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود .978-1-927946-10-7:(ISBN)

**●إعادة قراءة التشيع في العراق حفريات استشراقية، تأليف عدد من المستشرقين، تعريب وتقديم وتقويم د. عبد الجبار ناجي،** ٣٤٠ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود (ISBN):978-1-927946-11-4.

**●من تاريـــــــخ الحركات الفكرية في الإسلام، بندلي الجوزي،** ١٨٠ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود .978-1-927946-13-8:(ISBN)

**●الدولة العبـــــاسية (المعرفة – الإدارة) ، جمـــــــع من المســــتشرقين،** ٣٠٠ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود .978-1-927946-14-5:(ISBN)

**●الرســـــالة اليمنية، مــــــــوسى بن ميــــــمون، ترجمة وتقديم نبيل فياض،** ١٣٨ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود .978-1-927946-14-5:(ISBN)

**●بلاد ما بين النهـــــــرين في الكتابات اليونانية الرومانية، مجموعة من المؤلفين،** ١٩٠ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود .978-1-927946-14-5:(ISBN)

**●الماجــــــــريون، تأليف بـــــاتريشيا كرونه- مايكل كوك، ترجمة نبيل فياض،** ٣٠٩ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود .978-1-927946-15-2:(ISBN)

**●معرفـــــــة الشرق في العصر العثماني (الرحلة الأوربية إلى العراق)،** الرحالة البرتغالي تكسيرا- الرحالة البريطاني جونس- الرحالة البريطاني جون أشر، ١٤٤ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود 978-1-927946-19-0:(ISBN)

• كوتـــا والمعلقات (الاستشراق الألماني والشعر العربي القديم)، كترينا مومسن، ٧٨، صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود (ISBN):978-1-927946-16-9.

•معجـــم مفاهيم الـــقرآن وألفـــاظه، تأليـــف الدكتور محمـــد بيستوني، ٥٥٠ صفحة قطع متوسط، الورق شاموا ملون، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٥، بار كود (ISBN):978-1-927946-18-3 .

•الرحلة العربية إلى الديار الأوربية في العصر العثماني الأخير، تأليف الدكتور جرجي زيدان، ١٣٤ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كود (ISBN):978-1-927946-28-2.

•الصـــوفية في الإسلام، تأليف رينولد نيكلسون، ترجمه وعلق عليه نور الدين شريبه، ١٨٥ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كود (ISBN): 978-1-927946-27-5 .

•أهل الذمـــة في صـــدر الإســـلام من الاستسلام إلى التعايش، تأليف ملكه ليفي – روبين، ٣٩١ صفحة قطع متوسط، ترجمه عن الإنكليزية: د. نبيل فياض ، صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كود (ISBN): 978-1-927946-26-8.

•علـــم الفلك، تأريخه عند العرب في القرون الوسطى، تأليف كارلو الفونسو نلينو، ٣٠٠ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كود (ISBN): 978-1-927946-25-1.

•يسوع في التـــلمود – المسيحية المبكرة في التفكير اليهودي الحاخامي، تأليف بيتر شيفر، ترجمة وتقديم وتعليق د. نبيل فياض، ٢٤٥صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كود (ISBN): 978-1-927946-24-4.

• البوذيـــة والإســـلام على طـــريق الحرير، تأليف يوهان الفرسكوك، تعريب وتعليق: دكتور عبد الجبار ناجي، ٣٥٢ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كود (ISBN):978-1-927946-23-7.

•التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العباسية، تأليف الياهو شتراوس اشتور، ترجمه عن الإنكليزية: الدكتور جاسم صكبان علي، ٥٤٦ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كود (ISBN):978-1-927946-30-5 .

●النظم الإسلامية: بحث في مؤسسات الدولة والدين والمجتمع، تأليف موريس.غ. ديمومبين، نقله عن الفرنسية: صالح الشماع وفيصل سامر، ٣٠٠صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كود (ISBN): 2-31-927946-1-978.

●فلسفة ابن خلدون: تحليل ونقـــد، وضعه بالفرنـــسية د. طه حسين، نقله عن العربية: محمد عبد الله عنان، ٢٢٢ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كـــود (ISBN): 9-32-927946-1-978.

●أصنام المجتمع: بحث في التحيز والتعصب والنفاق الاجتماعي، بقلم الدكتور عبد الجليل الطاهر ، ١٨٣ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كـــود (ISBN): 4-37-927946-1-978.

●المواجـــهة بين المسيحـــية الشرقية والإســـلام المبكر: حرر من قبل إيمانويلا غرايبو و مارك سوانسون ودايفيد توماس، ترجمة شيرين حداد، ٤٣٥ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كـــود (ISBN): 3-34-927946-1-978.

●علم التاريخ عند المسلمين: تأليف: فرانز روزنثال، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، مراجعة محمد توفيق حسين، ٦٣٣ صفحة قطع كبير(وزيري)، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كود(ISBN):0-35-927946-1-978 .

●اللغتان السومرية والأكدية: قواعد- نصوص - مفردات، تأليف أد. نائل حنون، ٤٥٠ صفحة قطع كبير(وزيري)، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كود(ISBN):0-35-927946-1-978 .

●الأخلاق الجنسية والإسلام: تأملات نسوية في القرآن والحديث والفقه، تأليف كيشيا علي، ترجمة د. نبيل فياض، ٣٩٦ صفحة قطع متوسط، الورق بلكي سمك ٧٠، الغلاف جاكيت معقوف، الطبعة الأولى ٢٠١٦، بار كـــود (ISBN): 6-33-927946-1-978.

# المحتويات

## هذا الكتاب:

يسعى كتاب **اصنام المجتمع: بحث في التحيز والتعصب والنفاق الاجتماعي** إلى عرض كيف انتشرت اليوم عبادة الأصنام؟ وما هي الأسباب الدّاعية؟ وكيف أنّ سَدَنَة تلك الأصنام لها من القدرة والقابليّة على نشر الإشاعات والأراجيف التي تعظّم أصنامها، وتزيد في قدسيّتها، وكيف تساهم السّدنة في حرق البُخُور، وتقديمِ القرابين والأضاحي، وصنعِ الأوهام والأساطير لنيل الحظوة والجاه والشّهرة، والدّفاع عن المصالح.

والخطر كلّ الخطر، أن تتغلغل قدسيّة الأصنام في ضمائر النّاس وعقولهم، وأن تدور حولها الأساطير والخرافات، حتّى تغدوَ بنظر المنافقين والسّذّج من النّاس أنّها جزءٌ لا يتجزّأ من تكوين المجتمع، وأنّ وجودها شرطٌ أساسيٌّ لإحلال التّضامن بين أفراد المجتمع، وإحكام التّوازن بين الفئات الاجتماعيّة المتعارضة، ففي الكتاب محاولة سوسيولوجية لسبر ظاهرة مقدس الجماعة وكيفية تبلورها والآليات التي يشتغل عليها.


9 781927 946374 >

